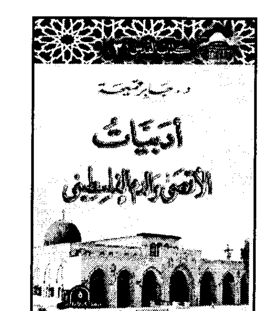
الدكتور : جابر قميحة

أدبيات

الأقصى والدم الفلسطيني

سلسلة كتاب
القدس (3)





● الطبعة الأولى
● المحرم ١٤٢٢هـ
● أبريل ٢٠٠١م

● **الكتاب :** أدبيـــات الأقصــــى..
والــدم الفلســـــطيني
● **المؤلف :** الدكتور / جابـر قميحــة
● **السلسلة :** كتاب القدس
● **قياس الصفحة :** ٢٠×١٤
● **رقم الإيداع:** ٢٠٠١/٥٢٥٤
● **الترقيم الدولي:** ٩٧٧.٥٢٧٤.٦١.٣

مركز الإعلام العربي:

ص. ب ٩٣ الهرم - الجيزة - مصر

● **هاتف :** ٣٨٣٣٣٦١ / ٠٠٢٠٢
● **فاكس :** ٣٨٥١٧٥١ / ٠٠٢٠٢
● **البريد الإليكتروني:**

E .Mail: media- c@ie - eg. com

Home Page: www. Resalah4u.com.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

أحمد الله سبحانه وتعالى فبه تستدفع المحن، وبه تستجلب المنن، وأصلى وأسلم على محمد بن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين، وخير البشر أجمعين.

أما بعد:

فإن فلسطين كانت - و ما زالت - جرحًا نازفًا فى كيان الأمة الإسلامية والعربيه. وكانت - ومازلت - هى الشغل الشاغل لكل من آمن بالله ربًا، وبالإسلام دينا، وبمحمد بن عبد الله نبيًا ورسولاً. فمنهم - فى الجهاد - من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً.

❖❖❖

وسجل القضية الفلسطينية يضم فى قوائمه مفردات متعددة، يتمتع بعضها بالتوافق والتعانق، ويتسم بعضها بالخلل والتناقض، إنه تاريخ رجال، وعزائم، وصبر ومصابرة، وآلام وآمال، ودماء وتضحيات، تاريخ مجابهات، وهزائم وانكسارات، وثبات وانتصارات. تاريخ رعايا وزعامات، ومؤامرات ومغالطات، وموائد وتصريحات، وسيوف، وزيوف، وجوع، ودموع، ودعاوى، وادعاءات.

❖❖❖

ووقف الأدب - وخصوصًا الشعر وبحساسيته، ورهافة نبضه - يرصد كل هذه الموجودات فى عالم الحس، والأرض، والسياسة والحكم، وأقطار النفس والشعور، وأعماق قلوب تستشرف الأمل، وعيون كوتها - وتكويها - نيران النكبة، وذل التشرد والاغتراب.

وعلى مدى ثلاثة أرباع قرن فاضت قرائح الشعراء بآلاف القصائد والملاحم التى تعايش القضية بكل مفرداتها، فكان الشعر على اختلاف مستوياته الفنية والفكرية - هو «ديوان القضية» بكل مفرداتها التى ذكرناها آنفاً.

وقد حرصت مجلة (القدس) التى يرأس تحريرها الأخ الأستاذ صلاح عبد المقصود، ومعه صفوة من الشباب المسلم النابه، على أن تجعل فى المجلة ركناً ثابتاً للأدب: شعره ونثره، وكان لى - منذ عدة سنوات - مكان فى هذا الركن الطيب، اتسع لقصائدى، ودراساتى الموجزة عن شعر القضية الفلسطينية، وبعض شعرائها من أمثال: إبراهيم طوقان، وأبى سلمى، وعبد الرحيم محمود، وعمر بهاء الدين الأميرى، ونجيب الكيلانى.

وكذلك حظ القدس والمسجد الأقصى، والانتفاضة والشهادة والشهداء من هذا الشعر، وكان لابد أن نتعرف على أدب أعدائنا، وما ينضح به من تعصب، وعدوانية، فكتبت دراسة موجزة عن «الأدب الصهيونى».

❖❖❖

وقد أحسن المسئولون عن المجلة صنعاً إذ رأوا أن تجمع هذه الدراسات الموجزة فى كتاب من السلسلة التى تقدمونها تحت عنوان «سلسلة كتاب القدس» كجزء من نشاطهم المبارك المبرور من أجل فلسطين والإسلام والعروبة.

❖❖❖

وقد جعلت الكتاب فى ثلاثة معروضات:

المعروض الأول: ذكرى ورسالة:

ضم موقفاً نبيلاً للبطل المنتصر صلاح الدين الأيوبى.

ورسالة وجهتها لرجل السلطة العرفانية: الطيب عبد الرحيم.

والمعروض الثانى: القضية والدم فى روضة الأدب:

ضم المباحث الأدبية والنقدية.

أما المعروض الثالث: إليكم بعض أشعارى:

فقد ضم بعض قصائدى المتواضعة.

❖❖❖

وأخيراً: آمل أن أكون قد وفقت فيما قدمت، وأصبت فيما اجتهدت. والكمال لله وحده. والحمد لله رب العالمين.

دكتور جابر قميحة

المحرم ١٤٢١

أبريل ٢٠٠١

عنوان مراسلة المؤلف: ج. مصر. ع

الجيزة - الأورمان

رمز بريدى ١٢٦١٢

ص.ب: ٢٤١

المعروض الأول:

تذكــرة ورســالة

الخيمة الصامتة

كان صلاح الدين الأيوبى (رحمه الله) فى زحفه الكبير الشامخ النبيل لاستخلاص القدس حريصاً كل الحرص على أن يتحلى هو وجنوده بالقيم الإسلامية عبادة وسلوكاً، وقولا وعملاً، أفرادا وجماعات.. وكان الجنود - كما عوّدهم وتعودوا. يتحلقون أمام خيامهم يتلون كتاب الله، فلا تسمع منهم إلا طنيناً كطنين النحل، تلك كانت عادتهم اليومية بعد صلاة العشاء. ويقال: إن صلاح الدين مرّ بالمعسكر ذات ليلة، فرأى الخيام كلها مستغرقة فى تلاوة كتاب الله إلا خيمة واحدة، فأشار إليها فى أسى غاضب، وقال: «الآن أعرف من أين نُؤتى». ومعنى هذه العبارة: الآن أعرف مقدما - إذا هُزمنا - أن هذه الخيمة الصامتة التى أضرب أصحابها عن تلاوة القرآن هى سبب الهزيمة، لأنها تمثل نقطة الضعف فى الجيش، و«ثغرة» يسهل على الأعداء اختراقها والنفوذ منها.

أترى صلاح الدين كان مبالغاً مسرفاً فى إطلاق هذه المقولة أو هذا الحكم؟ إن الإجابة تتوقف على تحليلنا لمفهوم التلاوة ودلالاتها فى مثل هذا الموقف بصفة خاصة:

- إن مجرد التحلق أو التجمع لتلاوة القرآن فيه استشعار صادق لروح الجماعة والتماسك والتلاحم.

- وتلاوة القرآن تطهير للنفس، وتنقية لها مما ران عليها، وتجعل المسلم موصولاً بالله بوشيجة قوية لاتبلى ولا تنقطع.

- وتلاوة القرآن تبعث فى النفس السلام والأمن والطمأنينة «ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

- وتلاوة القرآن حق تلاوته تمثل معايشة صادقة، تغرس فى نفس المسلم منظومة القيم التى يدعو إليها من قوة وإباء، وشموخ وعدل وحكمة ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ (البقرة: ١٥١).

إن مثل هذه التلاوة تعد إقراراً صريحاً مجهوراً «بتجديد العقد» مع الله بالتزام أوامره، والبعد عن نواهيه، فإذا مر المسلم بقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾، وقوله: ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده﴾، وقوله: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾، وقوله: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً﴾ وقوله: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون﴾.. إذا مر المسلم فى تلاوته بهذه الآيات أدرك فى سهولة أنها تدعوه إلى أن يأخذ نفسه عملياً بإعداد كل أنواع القوة لمجابهة أعداء الحق، ابتداءً من تقوية النفس بدنياً وروحياً وعقلياً، وتدعوه عملياً إلى الجهاد، والارتباط بالله وبالآخرة مع أخذ حظه من الدنيا، وتدعوه إلى البر بالوالدين، وتدعوه إلى الشموخ والإباء واستعلاء الإيمان، وهذا قليل جداً من كثير جداً يقدمه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذا هو الجانب العملى التطبيقى لما يتلوه المسلم من آيات القرآن الكريم.

ألست معى فى أن صلاح الدين كان على حق فى حكمه على «الخيمة الصامتة» بأنها تسبب الهزيمة، وقد قدمنا حيثيات هذا الحكم بلا تصنع أو افتعال؟ وألست معى فى أننا لن نلتقى فى القدس وفى معسكرنا – نحن المسلمين – مثل هذه الخيمة الغريبة الشاذة؟

إن مفتاح القدس فى أن «تنطق» كل الخيام وتعيد صلتها بالله صادقة قوية لا تهون.

ياطيب هذا أبوك فمن أنت؟

سعادة الأستاذ الطيب عبد الرحيم - أمين سر رياسة سلطة الحكم الإدارى الذاتى المحدود، وعضو اللجنة المركزية لحركة فتح بفلسطين المنهوبة:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وبعد: فإننى أكتب إليك هذه الرسالة داعياً الله أن ينير بصرك وبصيرتك، وأن يريك الحق حقاً، ويرزقك اتباعه، ويريك الباطل باطلاً، ويرزقك اجتنابه، فالاهتداء إلى الحق واجتناب الباطل لا يكفى لتحقيقهما - ياطيب - معرفة حقيقيهما وأبعادهما، ولكن لابد - يا طيب - من توفيق الله وهدايته؛ فهو القائل: ﴿من يهد الله فهو المهتدى، ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ (الأعراف: ١٧٨) وهو سبحانه القائل أيضاً: ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا﴾ (الكهف: ١٧).

أما هؤلاء الذين يعرفون وينكرون، وعن اعتناق الحق ونصرته يتقاعدون ويتغافلون ويتعامون فيصدق عليهم الحكم الإلهى العادل الحاسم في قوله تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (الأعراف: ١٧٩).

يا طيب .. يا أمين السر .. إن عاقلاً واحداً لا يستطيع أن ينكر أن الصراع بيننا - نحن العرب والمسلمين والفلسطينيين - من جانب، وبين الصهاينة من جانب آخر، إنما هو صراع بين الحق والباطل... فالأرض هى أرضنا، واليهود بغاة لصوص سرقوها من تحت أقدامنا.

نعم ... الأرض أرض أجدادك - ياطيب - أرض الشعب الفلسطينى النبيح، وهى الحقيقة التى أصرّ عليها وتمسك بها - فى شموخ وإباء وشمم - خليفة «تركى» مسلم. هل تعرفه ياطيب؟؟.

أنا أعرِّفُك به: اسمه عبد الحميد الثانى (١٨٤٢ - ١٩١٨)، استغل الصهاينة الأزمة المالية الحادة التى حلت بدولته.. وحاولوا مقابلته، وداخ زعيمهم «هرتزل» حتى حظى بلقائه،

وعرض عليه خمسين مليوناً من الجنيهات الذهبية لخزينة الدولة العلية مقابل السماح بالهجرة اليهودية إلى فلسطين، والسماح لليهود بإقامة دولة لهم على «قطعة» من أرض فلسطين، أتدرى ماذا قال السلطان - غير العربى - لهرتزل؟

تعال - ياطيب - لنقرأ ما كتبه هرتزل فى يومياته بالحرف الواحد «... وقال لى السلطان: إنى لستُ مستعداً أن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى غير أهلها، فالبلاد ليست ملكى، بل هى ملك شعبى الذى روى أرضها بدمائه، وليحتفظ اليهود بملايينهم الذهبية..».

وبعدها أخذ التآمر على الخلافة أبعاداً قذرة من الغدر والخيانة، وتكثيف القوى لضرب الأمة الإسلامية وعزلها عن دينها، وانتهاك حرماتها، ونهب فلسطين كلها، لا قطعة منها، و«إنا لله وإنا إليه راجعون».

يا طيب عبد الرحيم - يا أمين السر - كنت أتمنى أن أوجه إليك هذه الرسالة وأنت فى «القدس» عاصمة فلسطين الحرة أو المحررة، لا وأنت متربع على أريكتك العَرَفاتية، فى الأمتار الأرضية التى «أنجبتها» لكم «أوسلو» بعد مخاض متقيح موكوس. وأنا - يا للعار - أراك فى الجبهة الخاسرة المستسلمة التى تعدو على الحق، وتخنق الحقيقة، وأنت - يا أمين السر - فى براعة ساذجة تنثر تصريحاتك المعطوبة الزائفة ضد المجاهدين الأباة الأشراف من رجال حماس، ومن أشهر زيوفك ما صرحت به من أن رجالاً من حماس هم الذين قتلوا بطلهم المجاهد محيى الدين الشريف. يعنى الموساد الإسرائيلى، ورجال السلطة العرفاتية أبرياء من دم البطل الشهيد، أما القتلة فهم الحماسيون أبناء عز الدين القسام وأحمد ياسين، لكن لماذا يقتلون بطلهم وعقلهم المفكر المخطط؟ يقول الطيب والصفوة العرفاتية: بسبب الصراع على السلطة ومركز القيادة!!!

ولم تدرِ - يا طيب - أنك قد سقطتَ فى «دائرة الإسقاط»؛ فالذين يتصارعون على السلطة وما تدره من «غنائم» يعرفهم - ويعانى منهم - كل الشعب الفلسطينى. ثم إنى لسائلك يا طيب: أى صراع، وأية سلطة للقساميين الذين نذروا أنفسهم لله، وتغيَّوْا بجهادهم

الأخذ بثأره تحقيقاً لقول الشاعر:

سيدركُ ثأرَ اللهِ أنصارُ دينهِ
ولله أوسٌ آخرون وخزرجُ

وأى صراع على السلطة - يا طيب - بين قوم غايتهم الله، لا يركنون إلى دنيا، ولا يطمحون إلى منصب، ولا يهابون موتاً، وكل منهم يردد بلسان الحال ولسان المقال:

ولستُ بمُبْدٍ للعدوِّ تخشُّعاً
ولا جَزَعاً، إني إلى اللهِ مرجِعي
ولست أُبالي حينَ أُقتَلُ مسلِماً
على أى جنْب كانَ في اللهِ مَصرَعِي
وذلك فى ذاتِ الإلهِ، وإنْ يشأ
يباركْ عَلَى أوصالِ شِلْوٍ ممزَّعِ

يا طيب ... يا أمين السر - معذرة لهذا الاستطراد الذي أبعدنى - إلى حد ما - عن ذكر الباعث الحقيقى لتوجيه هذه الرسالة إليك... وهو حرصي على تذكيرك، وتذكير إخواننا القراء، وطلابنا الشباب «بقطعة» عزيزة من تاريخ فلسطين القريب.. حتى لا يدفنها النسيان، والذكرى تنفع المؤمنين.

وهذه «القطعة» - يا طيب - تقول بحق إنك «رجل أصيل» .. أى «ابن أصل» ... أو كما يقول المصريون: «ابن ناس طيبين». وأنا - والله يا طيب - لا أجاملك، فلا مطمع لى فى قطعة أو حتى «قُطيعة» من السلطة العرفاتية؛ فهي أصغر من أن يطمع فيها أي رجل شريف.

جدك لأبيك - يا طيب - هو الشيخ محمود الذى توفي عام ١٩١٩ ... كان عالماً جليلاً، وشاعراً قوياً أبيّاً نبيلاً، كم دافع ببيانه وشعره - في قوة وشدة - عن الصالحين من الحنابلة، وكمْ كرّ بشعره على قضاة وإداريين وساسة ظالمين، نعم كان جدك - يا طيب - شخصية فاعلة، ذات حاسة قوية ناقدة، لا ترضى بالظلم والخنا، ولا تغض الطرف عن عيب أو نقيصة.

❖ ❖ ❖

وأبوك - يا طيب - هو الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود (١٩١٣ - ١٩٤٨) الذي أشعل فينا الحماسة وروح الثورة، ونحن في سن الطفولة نردد من نصف قرن وأكثر كلماته:

سأحملُ روحي على راحتي
وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسرُّ الصديق
وإما ممات يغيظ العِدَى
ونفسُ الشريف لها غايتان
ورودُ المنايا، ونيلُ المنى..

ورأيتنى في شعري - يا طيب - أتتلمذ من صغرى - وأنا المصري - على شعر أبيك، على قلة ما كان يصل إلينا منه.

ورأيتني في عقيدتي أعانق روح أبيك... روحه الأبية المتوثبة، فأجعل من «فلسطين» نقطة مضيئة متوهجة في روحي وضميري وشعري.

❖❖❖

كنتَ - يا طيب - في الخامسة من عمرك عندما تركك أبوك لمرارة اليتم، وآثر أن يصعد إلى السماء عام ١٩٤٨، ليكون واحداً في موكب الأحياء الذين هم عند ربهم يرزقون.

وأذكرك - يا طيب - وأذكر شباب هذا الجيل بأن أباك بعد تخرجه في مدرسة النجاح عمل بها معلماً من عام ١٩٣٣ إلى عام ١٩٣٧، وكان - كأستاذه إبراهيم طوقان - يغرس فى طلابه قيم الوطنية والجهاد وروح الثورة.

وكان عز الدين القسام (١٨٨٢ - ١٩٣٥) الذى أنشأ جماعة سرية باسم (اليد السوداء) عام ١٩٣٠، يسلك طريق الجهاد الدامي، وتمكن هو ورجاله فى ٢٢ من كانون أول/ ديسمبر عام ١٩٣٢ من قتل عدد من اليهود، وفى ٢٠ من تشرين ثان/ نوفمبر عام ١٩٣٥ حاصرته القوات البريطانية ومعه ثمانية من رجاله، وظلوا يقاتلون لمدة أربع ساعات في معركة غير متكافئة، لا فى العدد، ولا فى العدة، حتى استشهد عز الدين القسام، وثلاثة من المجاهدين معه.

وبعدها تفجرت الثورة عام ١٩٣٦ فى كل مكان من فلسطين، واندلعت نيرانها فى المدن والقرى. وكان أبوك - يا طيب - فى ذلك الحين جندياً ناشطاً من جنود الثورة تحت إمرة القائد «عبد الرحيم الحاج محمد»، وكان مؤمناً إيماناً يقينياً حاسماً بمنهج القسام في الجهاد والكفاح الدامى كسبيل وحيدة للخلاص والحرية، ورفع أبوك - يا طيب - صوته الصاخ القارع بالشعر الملتهب يدعو الفلسطينيين والعرب إلى هذا النهج القويم، ومما قاله مخاطباً العربي بعامة، والفلسطينيى بخاصة:

قل: لا، وأتْبِعْها الفَعَالَ، ولا تخفْ
وانظر هنالك كيف تُحنَى الهامُ
اصهر بنارك غُلَّ عنْقك ينصهرْ
فعلى الجماجم تركَزُ الأعلامُ
وأقم على الأشلاء صرْحك إنما....
من فوقه تبنَى العُلا وتقام
واغصبْ حقوقك، قطّ لا تستجدِها
إن الألَى سلبوا الحقوق لئامُ
هذي طريقُك للحياة فلا تحدْ
قد سارها من قبلك القسَّامُ

◆◆◆

فى تلك الأيام - يا طيب - كانت حكومة الانتداب الإنجليزي تصف أباك وإخوانَه من المجاهدين «بالأشقياء»، تماماً - يا طيب - كما تصف أنت وإخوانك العرفاتيون أبطال حماس والجهاد بالخونة والإرهابيين. يا الله..!لما أشبه الليلة بالبارحة يا طيب .. يا أمين السر!!!

وفي آذار/ مارس عام ١٩٣٩ يستشهد القائد المجاهد عبد الرحيم الحاج محمد، ويُضيّق الخناق على الثورة، وتطارد حكومة الانتداب الثوار في كل مكان. ويتسلل أبوك - يا طيب - إلى العراق، ويلتحق بالكلية الحربية في بغداد، ويتخرج فيها ضابطاً.

ومـا إن رأى أبوك ثورة رشيد عالي الكيلاني على الإنجليز عام ١٩٤١ حتى كان واحدا من رجالها؛ فهو لا ينسى أن الإنجليز هم السبب الأول في نكبة شعبه، وأن دماء الأحرار سالت على أيديهم، وبأيديهم ثبت اليهود أقدامهم، وأنشأوا دولتهم الداعرة في فلسطين.

وأخفقت ثورة الكيلاني، وعاد أبوك إلى وطنه عام ١٩٤١، والانجليز مشغولون بحربهم الضروس ضد دول المحور، وتزوج أبوك بنت خاله، وكنت أنت الثمرة الأولى لهذا الزواج، فرأيتَ نور الحياة - يا طيب - عام ١٩٤٣. وانتظرنا أن تكون الامتداد الطبيعي الحميد لأصلك الطيب .... سالكاً نهج جدك العالم الشاعر الأبي الجليل محمود.. ونهج أبيك الشاعر المجاهد الشهيد عبد الرحيم... ولكنْ .... ولكنْ ... وآه .. ما أمرَّ لكن هذه يا طيب .. يا أمين سر السلطة!!!

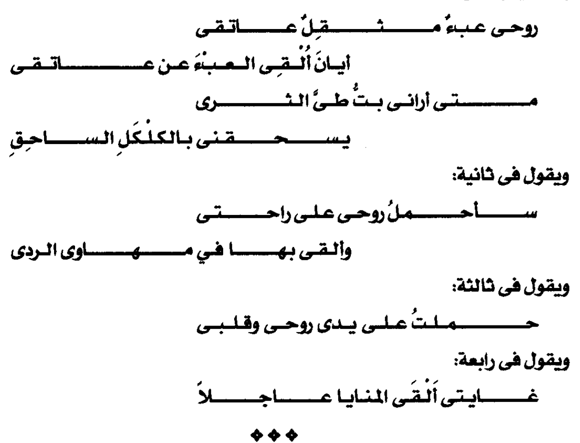
❖❖❖

كان أبوك - يا طيب - كريما مع وطنه، فقدَّم له روحه فداء. وكنْتَ وبقيةُ الأمراء العرفاتيين - للحق - كراماً - أيضاً - لا للوطن، ولكن «بالوطن»، فشهد لكم العالم بالبطولة الفذة في التنازل.. نعم التنازل عن الأرض ... والقيم.. والتاريخ... وها هو ذا الشعب الفلسطيني «ببطولتكم في التنازل» يعيش عصر الضياع والكريات، وكأن أباك كان يرى أيامك هذه - يا طيب - وهو يقول في قصيدة له استقبل بها الأمير سعود بن عبد العزيز في زيارته للقدس عام ١٩٣٥:

يا ذا الأميرُ أمامَ عينيك شاعرٌ
ضُمَّتْ على سودِ الهمومِ أضالعُهْ
المسجدُ الأقصى أجئتَ تزورُهُ
أم جئتَ مِنْ قبلِ الضياعِ تودعُهْ؟
حَرَمٌ يباحُ لكل أحمق آبق
ولكل أفاقٍ شريدٍ أربُعُهْ
وغداً - وما أدناه - لا يبقى سوى
دمع لنا يهمي، وسِنٌ نقرعُهْ

كأن أباك من خمسة وستين عاماً كان يرى رأى العين كيف سيُضيع الغدرُ والسذاجة والتنازل كلَّ مقدس وغال من أرض فلسطين، ولا يبقى لنا إلا الدموع والندم، رحم الله أباك يا طيب، فإنه لم يتنازل فى حياته إلا عن شىء واحد... هو روحه... جاد بها في سبيل الله والوطن.

وعاش أبوك - يا طيب - يتحرق شوقاً - لا إلى ثروة وجاه.. وسلطان - ولكن للموت فى سبيل الله والوطن... ففى كثير من قصائده كان يتغزل في الشهادة، وهى غاية أمثاله من الشرفاء، فيقول فى إحدى قصائده:



روحى عبءٌ مثقلٌ عاتقى
أيانَ أُلْقِى العبْءَ عن عاتقى

متى أرانى بتُّ طىَّ الثرى
يسحقنى بالكلْكَلِ الساحِقِ

ويقول فى ثانية:

سأحملُ روحى على راحتى
وألقى بها في مهاوى الردى

ويقول فى ثالثة:

حملتُ على يدى روحى وقلبى

ويقول فى رابعة:

غايتى أَلْقَى المنايا عاجلاً

◆◆◆

وكانت أروع القصائد التى نظمها أبوك فى حياته - يا طيب - هى آخر قصائده، لم تكتب على ورق، ولكن على ساحة القتال، ولم تكتب بحبر، ولكن كتبت بدم، ولم يستخدم أبوك فيها قلماً، ولكنه استخدم فيها السلاح، ولم تعبر بحروف وكلمات، ولكن صيغت بإصرار وثبات وعزيمة مستعرة، إنها القصيدة العملية غير المنظومة التى تتمثل فى موقف البطولة، ثم الشهادة فى معركة الشجرة فى ١٣ من تموز/ يوليو عام ١٩٤٨.. فتعال يا طيب نستمع - أنا

وأنت - إلى شهادة الملازم عبد الرازق المالكى أحد ضباط جيش الإنقاذ، وقد حضر المعركة مع أبيك... إنه يقول: «... وتقدم أبو الطيب - عبد الرحيم محمود - بأفراد سريته، وأدار المعركة، وكسر الطوق عن العرب المحاصرين، وقد أصيب بقنبلة خلال الزحف.. وفارق الحياة بعد أقل من ربع ساعة، وسحبناه على الأرض وسط رصاص المعركة الكثيف إلى قرية «طوعان» القريبة، ومنها نقلناه فى سيارة عسكرية إلى الناصرة...» وشيع جثمانه من المستشفى إلى المقبرة الإسلامية فيها.

❖ ❖ ❖

أرأيت كيف تكون الرجولة والبطولة يا طيب؟؟

أرأيت كيف تكون التضحية والفداء يا طيب؟؟

أعرفت بعد هذه المسيرة الطويلة معك أن أباك كان تجسيداً حيًا للرجولة والبطولة، للتضحية والفداء، للطهارة والنقاء؟ أليس من الواجب عليك - ولو من باب الوفاء - أن تتخذ منه القدوة والأسوة؟ وأنا أقسم لك أنه لو كان حياً لكان واحداً من رجال أحمد ياسين، ولرفض أن يكون أميراً فى العهد العرفاتى، أو أميناً لسر السلطان، وإن لم تفق يا طيب من غيبوبة السلطة وخدرها متخذاً من أبيك الأسوة والقدوة، فإنى - عوداً على بدء - أسألك منتظراً منك الجواب: يا طيب.. هذا أبوك.. فمن أنت؟؟ ... وما أنت؟؟

❖ ❖ ❖

وما قدمناه فى هذا «المعروض الأول» يمثل «موقفاً تاريخيًا عزيزًا رفيعًا» سقته للاقتداء، والاهتداء، والتأسى.

وأعقبه «توجيه فى رسالة» إلى نموج من الرجال السلطويين الذين يتحكمون فى أنفاس القضية، ومسيرتها. وكانت مواقف هؤلاء على النقيض من المواقف التى سجلها صلاح الدين الأيوبى بحروف من العزة والشموخ والإصرار والإباء.

وهذا «المعروض الأول» - ويكاد يكون «إشاريًا» - جاء توطئة تدعو - بلسان الحال - لمعرفة بقية «مفردات» القضية، ومكانها فى الشعر والأدب والتاريخ.

وهذا ما نراه ونعيشه فى المعروض التالى.

المعروض الثاني:

القضية والدم
في روضة الأدب

فلسطين والكلمةُ والتجنيدُ الأدبي

علَّمه البيان

أقف أمام قوله تعالى ﴿خلق الإنسانَ علَّمه البيان﴾ (الرحمن: ٣ - ٤)، وأهتف بلسان الحال، ولسان المقال: ما أعظم نعمة الله إذ خلق الإنسان، ولم يتركه سدى .. كمًا مهملاً تائهًا ضائعًا، يتساوى مع ما خلق الله من حيوانات، ولكن كرمه الله بنعم متعددة، من أهمها نعمتان:

نعمة معنوية جليلة هي العقل، ونعمة حسية ظاهرة، وهي الإبانة بالكلمة، وقد تختلف الكلمة باختلاف الشعوب نطقًا، وكتابة، حروفًا، وقواعد، ولكنها - مع هذا الاختلاف - تعتبر المتنفس الأعظم للعقل، والتعبير المبين عن دخائل النفس والضمير.

ولا يختلف اثنان في أن هاتين النعمتين: العقل والكلمة هما الفيصل الحاسم بين الإنسان والحيوان، ولأمر ما وردت المادة اللغوية المشتقة من العقل، وما دار في فلكه من كلمات مثل: اللب، والنظر، والاعتبار، والفكر، والعلم والفقه، والبصر .. إلخ أكثر من ألف مرة، وذلك في هيئة مصادر وأفعال وأسماء مفردة وجمع. وكان أكثر أفعال (الأمر) ورودًا في القرآن هو الفعل «قل»، إذ كرر في القرآن ٣٤٩ مرة.

◆◆◆

وحتى نعرف قيمة هذه النعمة - نعمة الكلمة علينا أن نتخيل أن الإنسان - وهو أكرم المخلوقات - لا يملك من وسائل التعبير إلا «الإشارة» بأطرافه ووجهه، دون نطق باللسان، إن النتائج التي يمكن استخلاصها من هذا التصور خطيرة بشعة منهلة، ومنها:

(١) محدودية الإبانة والتعبير فلن تكون «الإشارة» قادرة - في الكشف والتعبير - إلا عن عدد محدود من الموجودات المادية التي تدرك بالحواس الخمس، مع صعوبة - بل استحالة -

التعبير عن السرائر ولواعج النفس ومشاعرها.

(٢) محدودية المجال الاستعمالى، فالمفردات الإشارية لن تتمكن من الانتشار فى بيئات متباعدة مترامية، بل تظل مخنوقة فى مساحات متقاربة ضيقة.

(٣) محدودية البقاء والاستغراق الزمنى: فالإشارات - وهى غير مسجلة، ولا منقولة فى تواتر زمنى، تنقضى بتحقيق مطلوبها.

(٤) انعدام التواصل بين الشعوب لغياب اللغة المنطوقة المكتوبة .. لغة التفاهم إما مباشرة، وإما بالترجمة.

(٥) توقف مسيرة التطور الإنسانى اجتماعيًا وعلميًا وفكريًا، فالتطور لايتم إلا بتواصل الأمم والشعوب، وتوارث التجارب الإنسانية على مدار التاريخ، واللغة هى الآلية الوحيدة للقيام بهذه المهمة.

(٦) صعوبة تفسير التعبير الإشارى؛ لأنه لايبين عن المطلوب فى شكل حاسم، ولا يقود إلى دلالة قاطعة، مما يؤدى إلى مشكلات لا حصر لها ناجمة عن سوء الفهم والتفسير.

◆◆◆

الكلمة الطيبة .. والكلمة الخبيثة

ولخطورة هذا الدور الحيوى الذى تؤديه الكلمة، فرق الإسلام بين نوعين من الكلم هما:

١ - الكلمة البانية الخلاقة، وهى الكلمة الطيبة التى أبرز ملامحها قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾ (إبراهيم: ٢٤ - ٢٥)، فهى كلمة قوية ثابتة لاتعرف التردد، وهى شامخة رفيعة، وهى كلمة نافعة للفرد والجماعة، ونفعها دائم متجدد لاينقطع.

٢ - الكلمة المخربة المدمرة، وهى الكلمة الخبيثة، وهى على النقيض تمامًا من الكلمة الطيبة، وقد جاء ذكرها فى قوله تعالى: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ (إبراهيم: ٢٦)، إنها تؤدى إلى التخريب والضرر، وهى كلمة لا أصالة

فيها، وليس لها جذور خيرة، ومن ثم حُرمت الخلود؛ لأن بقاءها ضد الحياة، وطبائع الوجود والأشياء.

والمفرط فى توظيف الكلمة الطيبة بالإغفال والإهمال، أو بالصد والعناد والتصامم، إنما هو مفرط فى نعمة عظمى من نعم الله، جاحد بها سلبًا أو إيجابًا.

والكلملة الطيبة متعددة المجالات والموضوعات؛ فهى مطلوبة فى مجال الدعوة والتربية و التعليم، والتوجيه والتنظيم، مطلوبة فى السلم والحرب، لذلك كان للمسلمين شعراؤهم، وخطباؤهم فى مجال الدعوة إلى الحق، والدفاع عن الدعوة فى مواجهة دعاوى الأعداء من كفار ومنافقين ويهود، وغالبًا ما كانت «الكلمة الطيبة» فى ميادين القتال ذات قوة تغير مجرى الأحداث، وتحول الانكسار إلى انتصار.

من سجل التاريخ..

فى غزوة أحد يشيع الكفار أنهم قتلوا محمدًا (صلى الله عليه وسلم)، فيدب الوهن فى نفوس المسلمين، فيصيح أنس بن النضر فيهم: يا معشر المسلمين: إن كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد قتل، فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا، فموتوا على ما مات عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، واستقبل الكفار، فظل يقاتل حتى قتل، وأصابه الكفار بسبعين ضربة سيف، وطعنة رمح حتى ما عرفه أحد من المسلمين بعد المعركة إلا أخته عرفته بعلامة فى بنانه.

ولما ظهر رسول لله (صلى الله عليه وسلم) بعد أن أشاع الكفار نبأ قتله كان أول من رآه «كعب بن مالك»، فصاح «يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

وبهاتين الكلمتين كلمة أنس بن النضر، وكلمة كعب بن مالك استعاد المسلمون ثباتهم، ورباطة جأشهم، فانسحب الكفار إلى مكة، وعجزوا عن مواصلة زحفهم إلى المدينة.

وكانت صيحة العباس بن عبد المطلب يوم حنين بعد أن انكسر المسلمون واضطربوا وبدءوا فى التراجع بعد أن أعجبتهم كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئًا «يا أهل الشجرة، يا أهل السَّمُرة، يا أهل بيعة الرضوان .. هذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فهرع إليه المسلمون،

وهم يهتفون «لبيك لبيك» .. واستعاد المسلمون ثباتهم، وحققوا النصر المؤزر بعد انكسار وتراجع.

وفى اليرموك كانت كلمات أبى سفيان فى تحميس جيش المسلمين أقوى من آثار السيوف والرماح.

وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) جنح أهل مكة إلى الردة لولا أن خطب فيهم سهيل بن عمرو (رضى الله عنه) بكلمات نافذات جمعت بين الترهيب والترغيب» وهمت ثقيف كذلك أن ترتد لولا أن نهض فيهم عثمان بن العاص - عامل النبى (صلى الله عليه وسلم) عليهم - وصاح: «يا أبناء ثقيف كنتم آخر من أسلم، فلا تكونوا أول من ارتد».

وعز الدين القسام

والأمثلة فى تاريخنا أكثر من أن تحصى أو تُحد، لكننا نحتاج - فى وقتنا الحاضر - إلى وقفة مع رائد الجهاد و الفداء فى فلسطين «عز الدين القسام» الذى كان يردد دائمًا: «إننا لن نحرز النصر إلا إذا رفعنا المصحف بيد، والبندقية بيد أخرى»، لقد أدرك الرجل «قيمة الكلمة» فى الإعداد والتربية، والشحن المعنوى، فأطلقها تؤدى دورها فى التنبيه والإعداد والإثارة والتوعية، واتخذ من مسجد الاستقلال بحيفا - وقد كان إمامه وخطيبه - منبرًا تنطلق منه كلماته الصادقة المؤمنة فتنفذ إلى قلوب الناس وعقولهم فى قوة ووثوق ومن كلماته الخالدة:

- «... يجب أن تتحول الجواهر والزينة فى المساجد إلى أسلحة؛ لأنكم إذا خسرتم أرضكم، فكيف ستنفعكم الزينة وهى على الجدران؟...».

- .«إن كان ينقصكم السلاح فاقتلوا الأعداء، وخذوا منهم سلاحهم..».

- .. «رأيت شبابًا يحملون المكانس لكنس الشوارع، هؤلاء مدعوون لحمل البنادق، ورأيت شبابًا يحملون الفرشاة لمسح أحذية الأجانب» هؤلاء مدعوون لحمل المسدسات لقتل هؤلاء الأعداء».

- «... أيها المسلمون: لقد علمتكم دينكم، حتى صار كل واحد منكم عالمًا، وعلمتكم أمور وطنكم حتى وجب عليكم الجهاد، ألا هل بلغت اللهم فاشهد».

والخلاصة: أن الكلمة عاشت - على مدار التاريخ الإسلامى - مواكبة للجهاد، فى شكلها الخطابى والرسالى والشعرى: فكانت أداة توعية، وتفتيح عقلى، وتعبئة نفسية وروحية، للإقبال على الله، والاستهانة بالآخرة وحياة الخلود.

كلمات خبيثة وأدب عدوانى...

وشهد التاريخ - ومازال يشهد - أن قضية فلسطين هى قضية القرن، بل قضية العصر، إنها القضية التى أدخلت العرب والمسلمين - أرادوا أو لم يريدوا - فى مواجهة حتمية مع جبهة تضافرت فيها قوى الصهيونية و الإمبريالية والصليبية والإلحادية لضرب العرب والمسلمين، وهى قوى جندت كل الآليات الخسيسة فى الحرب والسياسة، والإعلام، والأدب، لحرق القضية الفلسطينية، وإنزال الهزائم والانكسارات والنكبات بالفلسطينيين والعرب والمسلمين. ومن ذلك:

(١) قيام إسرائيل بطبع مئات الآلاف من نسخ القرآن، بعد أن حذفت منه الآيات التى تفضح غدر اليهود وجرائمهم، ووزعت هذه النسخ المطبوعة طباعة فاخرة فى آسيا وأفريقيا.

(٢) تشكيل أدب صهيونى - من شعر ونثر - يحاول تأصيل الحقوق الصهيونية المدعاة فى فلسطين، أو أرض المعاد - كما يسمونها، وذلك بربطها بالمعطيات التوراتية والتلمودية، كما يصور العرب - بعامة - والفلسطينيين بخاصة بصورة الهمج المتخلفين المتوحشين، وعلى النقيض صورة اليهودى: فهو المتحضر التقدمى الذى يحمل النور إلى المنطقة لينتشل شعوبها من الجهل والضياع والكسل والتخلف.

فهو أدب عدوانى عنصرى بغيض ذميم، واكب - ومازال - العدوان المسلح، وانتهاب الأرض، وإقامة الدولة السرطانية، وإراقة الدماء البريئة.

◆◆◆

(٣) واعتمد نظام التعليم الإسرائيلى على غرس هذه القيم العدوانية فى مناهج التعليم ومقرراته فى المراحل التعليمية المختلفة، وكانت حقيقة الحقائق - فى نظرهم - أن الوجود الصهيونى، وقيام إسرائيل فى فلسطين إنما هو تصحيح لخطأ دام قرونًا، واسترداد لحق

انتهبه غير أهله، أي أن الوجود الفلسطيني على هذه الأرض وجود انتهاب واغتصاب يجب تحجيمه، ثم إلغاؤه تدريجيًا بشتى الوسائل.

وأكثر من ذلك: يدرس الطلاب أن لليهود حقوقًا تاريخية في جزيرة العرب، وفي المدينة (يثرب) بصفة خاصة، بدعوى أن أجدادهم كانوا يملكون مناطق أربعًا شاسعة - على نسق المستوطنات الإسرائيلية الحالية - وهي: أرض بني قينقاع، وأرض بني النضير، وأرض بني قريظة، وأرض خيبر، وأن «محمدًا» - نبي المسلمين - اغتصب هذه الأرض منهم، وقضى على سكانها قتلاً و تشريدًا، لذلك يدعو هؤلاء الصهاينة إلى استعادة هذه الأرض، وإقامة مستوطنات يهودية إسرائيلية مستقلة فيها ذات حكم ذاتي، وهو جزء من واجبهم القومي لابد من تحقيقه، كما يلح غلاتهم على ضرورة الإسراع «بتفكيك» المسجد الأقصى، وإعادة تركيبه في أرض الحجاز، وبذلك «تجتمع معابد المسلمين المقدسة في أرض واحدة»، على حد قولهم. والتخطيط العملي لغرس هذه العدوانيات مرّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل قيام الدولة، وفيها اعتمدت هذه الدعاوى على الإثارة العاطفية على المستويين المحلي والعالمي، باستغلال الوقائع، وما يتعرض له اليهود في ألمانيا بالذات من اضطهادات ومظالم، وصلت - كما يدعون - إلى حد إلقائهم في المحارق، وقتلهم بالسم البطيء الخفي الذي كان يوضع لهم في الطعام وهم في معسكرات الاعتقال.

أما المرحلة الثانية فتبدأ بإعلان الدولة: وقد اعتمدت هذه الدعاوى على تخطيط منهجي شامل في الإعلام والتعليم المدرسي والجامعي، والأدب شعره ونثره.

❖❖❖

وأين فلسطين في مناهجنا التعليمية؟؟

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن: أين مكان فلسطين في مناهجنا ومقرراتنا الدراسية؟

إن الإجابة تجابهنا بحقيقة مؤسفة خلاصتها: أن القضية لاتشغل في هذه المناهج والمقررات إلا مساحة ضيقة ضئيلة. وتكاد هذه تكون غائبة - أو ملغاة - في بلاد معينة.

ومن استقراء متأن طويل للمناهج والمقررات المدرسية في أغلب البلاد العربية، خرجت -

للأسف بالمرئيات الآتية:

(١) لامكان لآيات الجهاد والقتال فى مقررات التربية الدينية، وكذلك لأحكام الجهاد فى الفقه الإسلامى، ومتى يكون فرضًا كفائيًا، ومتى يكون فرضًا عينيًا.

(٢) لامكان للسيرة الجهادية للنبى (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه فى مواجهة اليهود البغاة: بنى قينقاع، وبنى قريظة، وبنى النضير، وخيبر.

(٣) لامكان لعرض جرائم اليهود فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) مثل: نقضهم كتاب الموادعة الذى كتبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) كدستور للمعايشة بين المسلمين واليهود فى المدينة، وما حولها، وكذلك مناصرتهم لكفار مكة، ومحاولتهم عدة مرات اغتيال النبى (صلى الله عليه وسلم)، غير استحلالهم الربا والحرمات، ونشر الإشاعات الكاذبة عن الدعوة الإسلامية.

(٤) إغفال عرض الآيات القرآنية التى تعرض جرائم اليهود - على مدار التاريخ - ضد أنبيائهم، وعبادتهم العجل، وكذبهم على نبيهم موسى ... إلخ.

(٥) التركيز على موضوع دعوة الإسلام للسلام لتهيئة النفوس لتقبل ما يسمى «باتفاقات السلام» مع إسرائيل، ودعوى «الأرض مقابل السلام»، ولا يجد أصحاب هذه الدعاوى عارًا ولا غضاضة فى الاستشهاد «بصلح الحديبية» لتبرير «اتفاقات السلام»، وخصوصًا «اتفاقية كامب ديفيد مع إسرائيل».

وأصحاب هذه الدعوى يرتكزون - بصفة أساسية - على قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ (الأنفال: ٦١) ويفسرونه على أنه «دعوة مطلقة» للسلام، وفى هذا التفسير إهدار للشرط «إن جنحوا»، والمعروف أن الصهاينة «لم يجنحوا» للسلام مرة واحدة، ولم يحترموا اتفاقًا واحدًا بينهم وبين العرب، ولم ينفذوا قرارًا واحدًا من قرارات الأمم المتحدة، فأين «جنوحهم للسلام» حتى نجنح له؟

كما أن أصحاب هذه الدعاوى يسقطون من حسابهم آيات هى الأولى بالاستشهاد فى واقعنا الذى نعيشه حاليًا، ومنها:

- ﴿.. ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ..﴾ (المنافقون: ٨).

- ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون﴾ .. (آل عمران: ١٣٩).

- ﴿.. فإن لم يعتزلوكم ويُلقوا إليكم السَّلم، ويكفُّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ (النساء: ٩١).

(٦) وفى مادة «التاريخ الحديث» لا تأخذ القضية الفلسطينية حقها، فلا تعرض إلا بإيجاز شديد جداً، وهذا العرض يسقط من حسابه فترات متوهجة جداً فى مسار القضية، مع إقحام أيديولوجيات حزبية معينة فى سياق هذا العرض، والانتصار لهذه الأيديولوجيات وإلباس أصحابها ثوب البطولة والفداء، ومن أمثلة ذلك أن «كتاباً» من كتب التاريخ المقررة على المرحلة الثانوية فى سنتها الأخيرة فى بلد عربى - عرض للقضية الفلسطينية من خلال زعيم هذا البلد وفكره و«نظريته»، معللاً ضياع فلسطين والهزائم التى نزلت - وتنزل - بالعرب بعدم الأخذ بفكر هذا الزعيم و«نظريته العالمية».

(٧) إغفال أدب المقاومة الحقيقى فى مقررات الأدب والنقد والنصوص، أو ضيق المساحة المخصصة لهذا الأدب، وأذكر فى هذا المقام أنه كان من الموضوعات المقررة فى الأدب على الفرقة الرابعة بالمرحلة الثانوية فى بلد عربى فى عام ١٩٧٣ موضوع من ثلاثين صفحة بعنوان: (أدب المقاومة)، وصدمت حينما اكتشفت أن الموضوع يحصر شعر المقاومة فى قصائد شعراء من أصحاب الاتجاه اليسارى الحاد، وخصوصاً الثلاثى: محمود درويش وسميح القاسم، وتوفيق زياد، مع عرض نماذج لما يسمى «بشعر المقاومة»، فيها استهتار بالقيم الأخلاقية وثوابتنا الإسلامية، وفيها جرأة على الله والدين مثل قول سميح القاسم:

.. واقتلونى أتحدى
أقتل الموت
وآتيكم إلها يتحدى

أما غير هؤلاء الثلاثة من أصحاب التوجه الأخلاقى والنضالى الكريم من أمثال: عبد الرحيم محمود، ومطلق عبد الخالق، وهارون هاشم رشيد، وأبى سلمى - فلا وجود ولا اعتبار لهم.

وبعد حملة شديدة على هذا البحث المغالط فى ثلاث مقالات طويلة كتبتها فى مجلة «الرائد» الكويتية بعنوان: «التشويه له ثمن فى وزارة التربية» أصدر الوزير قرارًا بإلغاء الموضوع وعدم تقريره مرة أخرى.

(٨) وفى كتب القراءة «المطالعة» وكتب «التربية الوطنية» و«التربية القومية» لا ذكر لأبطال الجهاد والفداء والشهداء الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل الله لتحرير فلسطين مثل: عز الدين القسام، وفرحان السعدى وعبد الرحيم محمود، وعبد القادر الحسينى وحسن ياسين ويحيى عياش وفتحى الشقاقى.

وطبعًا ليس هناك كلمة واحدة عن «حماس» وكتائب عز الدين القسام، وتنظيم الجهاد، وحزب الله؛ لأسباب لاتخفى على القارىء.

❖❖❖

هذا هو واقع المناهج والمقررات الدراسية فى علاقتها بالقضية الفلسطينية، ومكان هذه القضية بكل مفرداتها فى هذه المناهج والمقررات، وأنا لا أدعى أن كل هذه النقائص والمثالب والسلبيات متوافرة برمتها فى كل منهج ومقرر، ولكن ما ذكرت له وجود لاينكر مع اختلاف حظها من بلد إلى بلد بين القلة والكثرة والإسراف الذى يرقى إلى مستوى الظاهرة العامة، وهى نتيجة خلصت إليها بعد استقراء ووقفة ميدانية مع هذه المناهج والمقررات.

التجنيد الأدبى

لقد رأينا على مدار التاريخ الإسلامى كيف تعانقت «الكلمة والسلاح» فى الجهاد ومواجهة الأعداء، وهذا التلازم يقطع بأن الكلمة التى ليس وراءها قوة تحميها، أو قوة تستجيب لها، وتُدخلها حيز التنفيذ تكون فاقدة القيمة، أو ضعيفة التأثير، كما أن القوة التى لاتوجهها الكلمة الطيبة الراشدة الهادية قد تجنح جنوحًا عدوانيًا آثمًا.

وقد ذكرنا من قبل أن ما بيننا وبين أعدائنا ليس مجرد معركة تنتهى بانقضاء دواعيها، ولكنها حرب حقيقية ضارية سيطول أمدها، وهى حرب شاملة ضد العرب والمسلمين عقيدة، وهوية، وأرضًا، واقتصادًا، وفكرًا، قد تختلف الحظوظ فى اللظى الكاوى، والأنصبة المفقودة

والخسارة المفروضة على شعوبنا، ولكن تبقى الحقيقة المرة التى لاينكرها أحد، وهى أننا جميعًا متأثرون... سلبًا، وإيجابًا، انتصارًا، وانكسارًا.

ومن ثم كان علينا - نحن العرب بخاصة - أن نجند كل الموجودات والقدرات لتكون كل «مفردة» منها «مفردة حرب»: سياسة حرب، اقتصاد حرب، صناعة حرب، زراعة حرب، تربية حرب، أدب حرب. بمعنى أن تترجم كل قدرة وإمكانة إلى قوة تدعم الصمود والثبات، والصد، والدفاع، والهجوم، وبذلك تسير كل هذه القدرات والإمكانات فى خطوط مستقيمة متوازية، بعيدة عن التقاطع، والتصادم، والانفصام المنكود، لتحقيق هدف واحد هو البقاء الحى الناهض الكريم، المهيب الشريف.

وكل «قدرة» من هذه القدرات يجب أن تظهر فى صورتها السوية التى تشكلها وتحكمها قيم الأمة ومرجعيتها الأصيلة حتى نتفادى حدوث الخلل والتناقض بين «جزئيات الصورة»، فلا قيمة للإعداد العسكرى - مهما تعاظم - فى شعب مقهور مظلوم على أيدى حكامه وكبرائه.

ولا قيمة لهذا الإعداد - مهما تعاظم - إذا كان اقتصاد الأمة مكشوفًا، متسيبًا، يستحله أصحاب النفوذ، وعباقرة الحيل والسرقات والاختلاسات.

ولا قيمة للإعداد العسكرى - مهما تعاظم - إذا ما قام أدب الأمة - شعرًا ونثرًا - على المجون والفسوق والسقوط والنفاق. وهذا ما يدفعنى إلى أن أدعو إلى ما أطلقت عليه عبارة «التجنيد الأدبى»، وأعنى بهذه الدعوة ضرورة ارتفاعنا بأدبنا إلى مستوى «أدب الحرب» ... الحرب المفروضة علينا فرضًا فى كل مجالات الحياة العسكرية والاقتصادية والسياسية والعَقَديّة.

ولا أعنى بأدب الحرب تلك الصرخات العاطفية الصاخبة المنفوشة بطريقة «حنحارب .. حنحارب»، و«ابنك بيقولك يا بطل هات لى انتصار» و«حنّا للخيل .. هيه .. هيه».

ولا تلك الخطب العنترية الرنانة المتوعدة بحرق نصف إسرائيل أو إلقائها فى البحر، أو دعوة أمريكا وإسرائيل إلى الشرب من البحر وأحيانًا من البحرين: الأبيض والأحمر.

ولا حماسيات الفخر الكاذب العشوائى بطريقة «أنا مش خرع زى إيدن..».

ولا قصائد التوثين والنفاق، والكذب الذى يحول الهزيمة إلى عيد نصر، والانكسار والسقوط إلى ظفر ساحق لا فى معركة، ولكن فى أم المعارك.

و لا الأناشيد والأغانى الساذجة التى تدعى أنها تنتصر للفن الرفيع، وتنشر الوعى السديد، وتزرع الهزيمة النفسية فى قلوب الأعداء.

ولا القصيدة العابرة التى تمجد الجهاد فى كتاب مدرسى، ووضعت فى الكتاب ذرًا للرماد فى العيون بين ركام من النصوص المجافية لروح الأمة ومرجعيتها الشامخة الشريفة.

ولكنى أقصد بأدب الحرب «كلاً أدبيًا فكريًا وجدانيًا» ينهل من معين واحد هو مرجعيتنا العقدية والتاريخية فى الجهاد والكفاح والمعاناة، مرجعية ترتكز على الماضى المجيد، وتغذى الحاضر المناضل، وتستشرف مستقبلاً أبيًا، منتصرًا، سعيدًا، أما أهم الخطوط الأساسية، والتوجهات الرئيسة لهذا الأدب فتتلخص فيما يأتى:

١ - هو أدب تربية وسلوك، وتهيىء، وتعبئة، فى كل المراحل الدراسية بغرس روح الفداء وحب التضحية والإيثار والصبر والثبات والمصابرة، وهذه التعبئة العقلية، والخلقية، والوجدانية تدخل فى نطاق قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل..﴾ (الأنفال: ٦٠)، وقوله (صلى الله عليه وسلم): «رحم الله من أراهم اليوم من نفسه قوة».

٢ - وهو أدب يقدم ويوظف النصوص الإسلامية القوية التى تعالج معانى الجهاد والعزة والإباء، وعمق الإيمان: كخطبة جعفر بن أبى طالب فى حضرة نجاشى الحبشة، وخطبة طارق بن زياد فى فتح الأندلس، وشعر الفتوح فى صدر الإسلام.

وفى العصر الحديث خطب عز الدين القسام، وشعر من عبد الرحيم محمود، وأبى سلمى، وهارون هاشم رشيد، وعمر بهاء الدين الأميرى، وعبد الرحمن عشماوى.

٣ - وهو أدب يعرض فى كتب القراءة تراجم أبطال الفداء الفلسطينى، أو صورًا من حياتهم، ومنهم عز الدين القسام، وفرحان السعدى، وعبد القادر الحسينى، وحسن ياسين، والشيخ أحمد ياسين.

٤ - وهو أدب يجمع بين الاستمالة و الإقناع، بين جلال الموضوع وجماليات الشكل، وبراعة التصوير، وتوهج العاطفة وصدق الشعور.

٥ - وهو أدب شامل يتسع لكل الأجناس الشعرية والنثرية من قصائد غنائية إلى مسرحيات نثرية و شعرية، وملاحم وقصص، وروايات، ورسائل، ومقالات، كما يهتم بمرحلة الطفولة فهى مرحلة التأسيس والتجذير.

وفى التربية الدينية - ومن فروعها السيرة النبوية - يجب أن تبرز جرائم اليهود ضد الإسلام ونبيه (صلى الله عليه وسلم)، وفى التفسير يجب التركيز على الآيات التى تكشف عن حقيقتهم العدوانية، ومواقفهم الآثمة من الأنبياء والرسالات والمجتمعات، مع الربط بين الماضى والحاضر، حتى يتبين الدارسون مدى تجذر الطوابع العدوانية والإجرامية والتعصبية فى نفوسهم من قديم، وحتى يؤمنوا أن صهاينة اليوم إنما هم امتداد لا أخلاقى ولا إنسانى ليهود الأمس، ومن ثم يجب التأسى بمنهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحبه فى التخلص منهم، والقضاء عليهم.

وما يقال عن التربية الدينية يقال كذلك عن مادة التاريخ، وكذلك كل مادة دراسية تتسع للأخذ بهذا التوجه، من أجل إعداد النفوس وتربيتها عقديًا، وفكريًا، وعسكريًا.

وهذا التوجه يجب ألا يختص به شعب دون شعب، بل يجب أن تأخذ كل الشعوب العربية والإسلامية نفسها به، حتى تضمن البقاء والحياة بشرف وحرية وإباء.

❖❖❖

وقد تثور تجاه هذه الدعوة اعتراضات أو شبهات يمكن تصور أهمها فى اثنتين:

الأولى: أن هذه الدعوة إلى «التجنيد الأدبى» تحمل فى طياتها «إجبارًا أو إكراهًا»، مما لايتفق مع طبيعة الأدب الذى يجب أن يتمتع بحرية الاختيار، وحرية التعبير والأداء، وإلا تحول إلى منتج جاف خال من الجماليات.

وهى شبهة فى غير محلها؛ لأن ما ندعو إليه هو «الالتزام العملى» لا «الإلزام السلطوى القهرى» بمعنى أن يكون «الالتزام» استجابة لضمير الأديب، وانعكاسًا لإيمانه، بحيث يكون

هذا الالتزام جزءاً من نسيج شخصيته، وتكون عقيدته هى المرتكز والمنطلق الطبعى، دون إرغام أو قهر وإجبار، وعلى ذلك كان شعراء الرعيل الأول من المسلمين.

فالالتزام هنا ليس عنصراً خارجيًا مفروضًا على الأديب المسلم، ولكنه انبثاق طبعى يطرحه، ويغذيه القلب المؤمن والضمير الحى، والعقل الواعى.

أما الاعتراض الثانى - أو الشبهة الثانية - فخلاصتها أن دعوة «التجنيد الأدبى» ستحمل الصهاينة إلى تبنى مثلها، والعمل على نشرها، والأخذ بها فى المجتمع الإسرائيلى.

وهى شبهة مردودة لسبب بسيط هو أن إسرائيل سبقتنا إلى هذا «التجنيد الأدبى» فى دولة ليس فيها مدنى وعسكرى، بل كل من فيها «عسكريون» رسميون، ومن يرتدى منهم «الزى المدنى» هو «تحت السلاح»، ورهن «الاستدعاء» ليغير زيه فى لحظات، فكل من فى دولة العدوان هذه وكل ما فيها مطبوع بالطابع العسكرى الحربى: الرجال والنساء، والسياسة، والاقتصاد، والفكر والأدب، وقد فصلنا هذه الحقيقة فى بحثنا عن «الأدب الصهيونى».

◆◆◆

فالمرحلة الحاضرة إذن - وهى أخطر المراحل التى تمر بالأمة العربية والإسلامية - تحتاج إلى وضع خطة طويلة المدى «لعسكرة» الأمة: سياسة، وتربية واقتصاداً، وفكراً وسلوكاً، ومناهج، وأدبا، إذا أردنا أن نعيش حياتنا فى حرية وعزة واستقرار، وشموخ، وإباء.

فلسطين فى شرايين طفولتى

كنت وحيد والدى من الذكور بعد أن مات شقيقاى فى حياة أبى، فلا عجب أن أنال من اهتمام أبى التاجر الناجح الكثير والكثير. قطعت مرحلة الكتّاب بتوفيق كبير، ثم مرحلة التعليم الإلزامى، فمرحلة التعليم الابتدائى التى التحقت بها وأنا فى العاشرة من عمرى، قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية بقرابة عامين. وفى مسيرة المرحلة الابتدائية كان يطرق أذنى كلمات تحرك مشاعرى: فلسطين ... مسرى النبى ... الجهاد ... بذل الدماء.

وفى مسجد «أبى خُودة» المجاور لمنزلنا استمعت لخطبة الجمعة التى ألقاها عالم المنزلة والأزهر الشيخ مصطفى الحديدى الطير، وكان موضوعها «الجهاد فى سبيل الله»، وفيها تحدث عن فلسطين، وعن جرائم الصهاينة ضد الأبرياء من الأطفال والشيوخ والنساء ومازلت أذكر من كلماته «إن الصهاينة كالوحش الكاسر ... التصدى له فرض، وقتله مطلوب ... واجب».

عندها تذكرت كلمات والدى عن «القط الأعور» .. «إن قتل هذا القط حلال .. بل واجب» والقط الأعور قط ضخم غليظ الرقبة، فُقئت عينه بضربة من مجهول تركت خطا رماديًا متورمًا مكان العين المفقودة، لذلك كان إذا مشى أمال رأسه - بعض الميل - ناحية العين المبصرة. لم أره إلا مرتين: الأولى وهو يتمطى فى الشمس، ويتثاءب .. كان دميمًا .. بشع المنظر ..

أما المرة الثانية فحينما كانت تطارده أمى وهى تصرخ فى أبى:

- القط الأعور .. أكل البط الأخضر.

وعرفت بعد ذلك التفاصيل: كانت أمى تجلس على سطح منزلنا، وفى رعايتها قرابة أربعين «بطة خضراء»، أى صغيرة لم يفقس البيض عنها إلا من أسبوع ...

وتركت أمى هذه المخلوقات الخفيفة الضعيفة تتمتع بشمس الشتاء، وغادرت السطح

قرابة عشر دقائق، فلما عادت لم تجد بطة واحدة على قيد الحياة. والقط الأعور يقف على سور السطح يلعق بلسانه بقايا دماء تناثرت على فمه وشواربه، وهو ينظر إليها بعينه السليمة فى تحد وقح ... وفى لمح البصر قفز إلى سطح الجيران.

- ولكن كيف استطاع أن يقضى على هذا العدد الكبير من البط فى أقل من ربع ساعة؟

أجابت أمى على سؤال أبى:

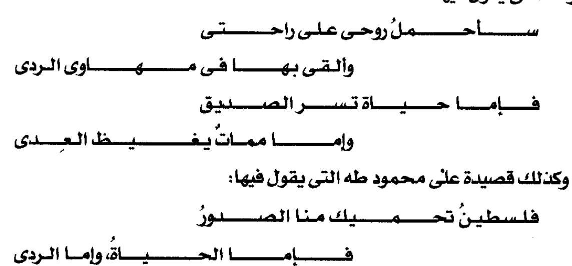
- أكل ما أكله، وقتل بمخالبه وأسنانه ما قتله، وخنق الباقى...

وعرفت بعد ذلك أن «الخنق» هنا معناه أن يفتح القط فمه، وينفخ ويصرخ فى البط، فيموت رعبًا.

قال أبى: إن قتل هذا القط حلال ... حلال ... بل واجب...»

وتمثلتُ لى هذه الصورة التى تكررت فى بيوت الحارة كلها، وأنا أسمع الشيخ مصطفى الطير فى خطبة الجمعة «إن الصهاينة كالوحش الكاسر ... التصدى له فرض، وقتله مطلوب ... واجب».

وبدأ قلبى ينبض بفلسطين ... حبًا ..وحماسة، وإشفاقًا، وتدينًا، وكثيرًا ما كان يحدثنا بعض أساتذتنا من أعضاء الإخوان المسلمين عن فلسطين، وفرضية الجهاد، وواجب المسلمين نحوها، وكلهم الآن فى رحاب الله، وأذكر منهم الأساتذة: إبراهيم العزبى، والمهدى قورة، وكامل الخريبى وزاد من توهج شعورى ما كنت أقرؤه للشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود وخصوصًا أنشودته التى يقول فيها:



سأحملُ روحى على راحتى
وألقى بها فى مهاوى الردى

فإما حياة تسر الصديق
وإما مماتٌ يغيظ العِدى

وكذلك قصيدة على محمود طه التى يقول فيها:

فلسطينُ تحميك منا الصدورُ
فإما الحياةُ، وإما الردى

وكذلك أشعار «شاعر الدعوة» الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح الذى كان يعمل مدرسًا بمدرسة المنصورة الثانوية، وفى أواخر المرحلة الابتدائية نظمتُ غير قليل من الشعر عن فلسطين جمعتُه مع غيره فى ديوان مخطوط سميته «اذكرينى عند قبرى». وللأسف فقد هذا الديوان الذى ضم هذه المحاولات الأولى .. وللأسف لا أذكر مما نظمتُ عن فلسطين إلا المقطوعة الآتية:

فلسطين أمى وحق اليقين
وحق الشهيد غدا تسمعينْ
غدا تسمعين بأنا نسود
إذا ما حصدنا فلول اليهودْ

وفى هذه المرحلة رأيت كيف نهض شباب الإخوان للدفاع عن فلسطين وتخليصها من براثن الصهيونية، ومن عصابات الهاجاناة وشتيرن وأرجون زفاى ليومى ... تلك العصابات التى كانت تتعامل مع الفلسطينيين بمنطق «القط الأعور» مع «البط الأخضر» .. رأيت من منطقة المنزلة: عبد الحميد الزهرة، ونعمان محمد، ومحمد عثمان جادو وغيرهم يهرعون متطوعين للجهاد، فأخذتنى الحماسة - وأنا وحيد والدى - وذهبت إلى الأستاذ عبد الرحمن جبر - مسئول المنطقة:

- أريد أن أتطوع للجهاد فى فلسطين.

- ولكنك صغير السن.

- خذونى حتى لو حصرتم مهمتى فى تقديم الشاى للمجاهدين فى الميدان ..

ابتسم الرجل ابتسامة أبوية حانية وقال:

- المجاهدون لايدخنون، ولا يشربون الشاى. وعلى أية حال سيكون هناك فى المستقبل أفواج ... وأفواج.

وفى هذا المقام لا أنسى الواقعة التالية:

نظمت مدرستنا - مدرسة المنزلة الابتدائية التى كنت تلميذًا بها - رحلة إلى القاهرة سنة

١٩٤٨ لمدة أربعة أيام، وكان «المتحف الزراعى» معلَمًا من المعالم التى زرناها فى القاهرة، وأمام قسم من أقسام المتحف وقف الحارس المسئول عنه احترامًا لنا، وقدم نفسه لنا - دون أن نطلب منه ذلك:

- أخوكم عبد السميع قنديل من شعبة إمبابة، والحمد لله اتخذت كل إجراءات التطوع للجهاد فى فلسطين، وإن شاء الله سيكون اسمى فى أول قائمة لشهداء الإخوان فى فلسطين.

وحقق الله ما تمناه عبد السميع فكان من شهداء أول معركة خاضها الإخوان فى فلسطين، وهى معركة «كفار ديروم» فى ١٤ من نيسان/ أبريل ١٩٤٨.

وعرفت بعدها مزيدًا من التفاصيل: منها أن له شقيقًا هو «عبد المنعم»، وأبوهما شيخ كبير، وأصر الشقيقان على التطوع للجهاد، وأمام هذا الإصرار اقترح الإخوان اللجوء إلى القرعة ليبقى أحدهما مع الأب الشيخ، واحتج الذى لم تصبه القرعة.

وأمام هذا الإصرار أعلن الأب موافقته على أن يتطوع للجهاد كلاهما ... وقال «لن ينسانى الله» ... واستشهد عبد السميع، وعاد عبد المنعم بعد أن أدى واجب الجهاد والفداء.

❖ ❖ ❖

إنها وقائع عطرت درب طفولتى، وأنارت أقطار نفسى، ونقشت اسم «فلسطين» على جدران قلبى، فكانت - حتى فى المكرَهِ والضراء - أعذب المناهل التى استقيت منها موضوعات شعرى: فى ريعان شبابى، واتزانات كهولتى، وارتعاشات شيخوختى. إنها فلسطين، أرض الأنبياء، ومسرى خاتمهم ... كانت - ولم تزل - العبير والدم والحياة التى تتدفق فى شرايينى.

قضية فلسطين
في ديوان الشعر العربي (١)

هى قضية العصر لا مراء ... وهى جريمة القرن العشرين التى لم يكن لها مثيل أو شبيه - لا أقول فى تاريخ العصر بل أقول - فى تاريخ البشرية كلها.

لقد ابتليت الأرض الفلسطينية بنوع من الاستعمار جديد، غير مسبوق بشبيه، فالمعروف -من الاستقراء التاريخى - أن الاستعمار يعتمد على احتلال قوة عسكرية أجنبية لقطعة من أرض وطن لأهداف عسكرية أو اقتصادية..

ويكون ذلك لأمد قصير أو طويل، ينتهى بخروج هذه القوة العسكرية من الأرض المحتلة لاستنفاذ أغراض الاستعمار، أو تحت ضغوط قوى المقاومة المحلية، أو تحت ضغوط عوامل عالمية ترتبط بسياسات الدول الكبرى فى نطاق الأحلاف أو التكتلات السياسية والعسكرية مما يخرج تفصيله عن مجال دراستنا. أما الاستعمار الصهيونى فهو استعمار استيطانى أو سكانى، هو استعمار لا يأخذ شكل جيش يقهر الأمة المتخلفة ويحتلها ليستغل إمكاناتها الاقتصادية والبشرية لصالح البلد الأوروبى الغازى، وإنما يأخذ شكل نقل مستوطنين أوروبيين من بلادهم إلى البلد الجديد ليعيشوا فيه، وليتخذوه وطناً جديداً لهم.

وسمة ثانية للاستعمار الصهيونى هى أنه لم يقم ولم يستمر استعماراً له «كيانه وشخصيته المستقلة» كالاستعمار الإنجليزى لمصر، أو الاستعمار الفرنسى للجزائر، ولكنه كان استعماراً عميلاً، فالصهيونية حينما ظهرت لم يكن لها جيش أو شعب، وإنما كان عندها «برنامج» فحسب لتوطين اليهود في فلسطين.... برنامج تبنته الإمبريالية، وساعدت الحركة الصهيونية فى فرضه على اليهود، ثم على فلسطين والفلسطينيين، وبعد إنشاء الدولة الصهيونية رعت الإمبريالية هذه الدولة بدرجة لا نظير لها.

ثم هو استعمار يرتكز ابتداء على عقيدة دينية ترى فى فلسطين «أرض الميعاد» التى لا تكتمل عقيدة اليهودى إلا بالعودة إليها، فاليهود يزعمون «أن لهم صلة تاريخية قديمة وثيقة بفلسطين تجيز لهم إحياء إسرائيل التى قبرت منذ آلاف السنين، والعودة إلى أورشليم».

وآخر سمات الاستعمار الصهيونى - وربما كان هذا من العوامل الأساسية لنجاحه نجاحاً لم يكتب لغيره من الألوان الاستعمارية الأخرى - أنه «استعمار مبرمج» إن صح هذا التعبير. أو بتعبير آخر: كان وراءه عقليات خططت له تخطيطاً علمياً دقيقاً يعتمد على الأناة وتعمق الواقع، واستثمار الأحداث إلى أبعد مدى فى سبيل الاستيطان الدائم وإنشاء الدولة الإسرائيلية فى أرض الميعاد.

وفى هذه الدراسة المتواضعة نحاول - بقدر ما نستطيع - أن نلقي الضوء على موقف الشعر العربى الحديث من القضية الفلسطينية، وكيف ساهم - لا فى تسجيل أبعادها ووقائعها وتضاريسها فحسب - ولكن فى الانتصار بالكلمة الحية الفعالة، والانتصار للبطولة والأبطال، والإشادة بالشهادة والشهداء، وإثارة المشاعر، وتسعير العزائم للثورة فى وجوه المعتدين، وكيف تصدى للبغاة والخونة من أبناء جلدتنا، وهتك سترهم وفضح أمرهم

❖❖❖

كان وعد بلفور لطمة عاتية للشعب الفلسطينى وأمانيه القومية، لذلك هب شعراء فلسطين يندمون بهذا الوعد الغاشم الذى أبان فى وضوح عن النوايا السيئة للإنجليز. يقول الشاعر محيى الدين الحاج:

كم كـــان وعـــدك يا بلفـــور مـــشـــأمـــةً
أعـــوذ بالـلـه مـن شـــؤم المواعـــيـــدِ
دون البـــلادِ وتهـــويد البـــلادِ كـــمـــا
يـرون عـــزمُ أباةٍ غـــيـــرُ مـــردودِ
وأمـــة وثبت تحـــمى حـــقـــيـــقـــتـــهـــا
فى ذا الـوجـــود ولا ترضى بمـوعـــود

فــالله يشــهــدُ والتــاريخ مــرتقبٌ
فـيـه الصـحـائف من بيض ومن ســود

ويقول إبراهيم طوقان فى هذه المناسبة مخاطباً حكومة الانتداب بشعر يقطر سخرية مرّة:

قـد شـهـدنا لعـهـدكم بالعـدالة
وخـتـمنا لجندكم بالبـسـالة
وعـرفنا بكم صـديقـاً وفـيـاً
كـيف ننسى انتـدابه واحـتـلاله
وخـجـلنا من لطفكم يوم قلتم
وعـدُ بلفـور نافـذٌ لا مـحـالة
كل أفـضـالكم على الرأس والعين
وليـست فى حـاجـة لدلالة
ولئن سـاء حـالنا فكفـانا
أنكم عندنا بأحـسـن حـالة
غـيـر أن الطريقَ طالتْ علينا
وعليكم فـمـالنا والإطالة
أجـلاء عن البـلاد تريدون
فنجلوا أم مـحـقنا والإزالة

وتلح هذه الذكرى بكآبتها على وجدان الشعب الفلسطينى، وبعد عشرين عاماً من هذا اليوم الكالح المنكود يقول الشاعر مطلق عبد الخالق (١٩١٠ - ١٩٣٧):

عـشـرون عـامـاً قـد مـضين ولم تكنْ
يـا يـوم إلاّ ريـبـة المـرتـابِ
أَوَلستَ ذا وجـهـين وجـهٍ باسمٍ
لـهُمُ ووجـهٍ بارزِ الأنـيـابِ

دخلوا بلادك فاتحين فصنتهم

وأذقتنا يايوم مُرَّ عذابِ

ما أشامَ الدنيا وذكرُك حافلٌ

بفواجع الأشلاءِ والأسلابِ

وبدأت موجات عاتية من الهجرة اليهودية، وكان واضحاً أن الهدف من تهجير اليهود إلى فلسطين بأعداد كبيرة خلق تفوق عددى على عدد الفلسطينيين العرب، فإذا ما دعم بالمال والسلاح والعلم ووسائل العمل تحقق معه تفوق كيفى، وكل أولئك لإنشاء دولة إسرائيل التى خُطط لإنشائها من عشرات السنين، والتى سعى «هرتزل» والقوى الإمبريالية العالمية لخلقها. ولغة الأرقام تقول: إنه فى عام ١٩١٤ كان مجموع سكان فلسطين ٦٨٩ ألفا بينهم ٨٤ ألف يهودى، وفى عام ١٩٢٥ بلغ مجموع السكان ٧٦٢ ألفا بينهم ١٥٧ ألف يهودى. وفى نهاية عام ١٩٣١ بلغ مجموع اليهود ١٧٥ ألف يهودى. وهذا العدد يمثل ١٧٪ من عدد السكان.

وظلت الهجرة اليهودية بطرقها المشروعة وغير المشروعة تغرق فلسطين حتى أصبح عدد اليهود المسجل رسمياً فى فلسطين حتى ١٥ آيار/ مايو عام ١٩٤٨ نحو ٦٥٠ ألف مهاجر، وبذلك تضاعف عددهم ١٣ ضعفاً، وارتفعت نسبتهم إلى مجموع سكان البلاد من ٦٪ عام ١٩١٨ إلى ٣٣٪ عام ١٩٤٨.

ويرفع الشاعر إبراهيم طوقان صوته فاضحاً هذه الهجرة الآثمة التى تهدد فلسطينى بالضياع فى قصيدة له بعنوان (١٠٠٠) يقول فيها:

وألف جوازٍ ثم ألف وسيلةٍ

لتسهيل ما يلقونه من مصاعب

وفى البحر آلاف كأن عبابَه

وأمواجَه مشحونةٌ فى المراكب

ويرى أن الإنجليز هم أصل النكبة، وأن حكومة الانتداب وراء هذه الهجرات العاتية فيخاطبهم بقوله:

منذ احتللتم وشؤم العيش يرهقنا
فقرا وجوْرا واتعاساً وإفساداً
بفضلكم قد طغى طوفان هجرتهم
وكان «وعداً» تلقيناه إيعاداً
واليومَ من شؤمكم نُبلى بكارثةٍ
هذا هو الطين والماء الذى زادا

ومع استقرار اليهود بهذه الأعداد الهائلة فى فلسطين أخذوا يبتاعون الأرض على نطاق واسع، ففى عام ١٩١٨ مثلاً لم يكن اليهود يملكون إلا ٢٪ من مجموع مساحة الأرض، ثم ابتاعوا خلال السنوات الثلاثين التالية أراض أخرى، فارتفعت هذه النسبة إلى ٦٧,٥٪ من مجموع أراضى فلسطين. ويظهر أن هذه النسبة أكثر تواضعاً من الواقع، لأن حكومة الانتداب قدرت عام ١٩٤٦ أنه كان لدى اليهود ١٥٪ من أراض فلسطين الصالحة للزراعة.

ووقف الشعر يندد بهؤلاء الذين يفرطون فى أرضهم بالبيع، ويصم سماسمرة بيع الأراضى بالخيانة، ومن الشعراء الذين ألحوا على هذا المعنى، وأطالوا القول فيه «إبراهيم طوقان» - رحمه الله - الذى كان «يحس أن وطنه يباع، فيصب نقمته على عصبة السماسمرة الذين كانوا يغرون الناس ببيع أرضهم، وعلى البائعين مذكراً إياهم بأبنائهم الذين سوف يتحولون إلى أجراء بعد أن كانوا ملاكاً، ناصحاً إياهم أن يبقوا باعاً من أرضهم لقبورهم». يقول إبراهيم طوقان:

باعوا البلاد إلى أعدائهم طمعاً
بالمال لكنما أوطانَهم باعوا
قد يعذرون لو ان الجوع أرغمهمْ
واللهِ ما عطشوا يوماً ولا جاعوا
أعداؤنا منذ أن كانوا صيارفةٌ
ونحن منذ هبطنا الأرض زراع

لم تعكسوا آية الخلاق بل رجعتْ
إلى اليهود بكم قربى وأطباع
يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبةٍ
ولا تعلمتَ أن الخصم خداع
لقد جنيت على الأحفاد والهفى
وهم عبيد وخدام وأتباع
وغرّك الذهبُ اللمّاعُ تحرزُه
إن السراب كما تدريه لماع
فكر بموتك فى أرض نشأت بها
واترك لقبرك أرضاً طولُها باعُ

لقد كان الإحساس شديداً وفادحاً بالجناية التى يجنيها على الوطن باعة الأرض لليهود والسماسرة الذين تجردوا من شرف الدين والوطنية حتى أن «عبد الكريم الكرمى» يرى أن جناية هؤلاء لا تقل بشاعة عن جناية الأعداء من الإنجليز والصهاينة، فيخاطب وطنه بصوت مفجوع، وقلب محطوم:

وطنى أنت بقايا أملٍ
خضبته عبرات من فؤادي
ما الذى جرَّح جنبيك أجبْ
كيدُ أبنائك أم كيدُ الأعادى

بل إنه ليرى أن جريمة المفرطين المنتسبين إلى الوطن أشد وأنكى من جريمة الأعداء الصرحاء، ويحملهم مسئولية ضياع الوطن، فيقول مخاطباً فلسطين:

لا تسألى المستعمرين
بل اسألى أهل الديار

وهو نفس المعنى الذى ألح عليه عبد الرحيم محمود، فيقول:

إنا بأيدينا جرحنا قلبنا
وبنا إلينا جاءت الآلام

ومن حقنا بعد هذه المسيرة أن نقف وقفة متأنية أمام وضع «أصحاب القضية» ... أصحاب الأرض والحق والتاريخ. وهم «الجانب الضحية أو المجنى عليه» لنرى مواقفهم فى مواجهة المعتدين الغاصبين.

وحتى نستطيع أن نقيّم هذه المواقف والوقائع تقييمها الصحيح يجب أن يكون نصب عيوننا دائماً أن أهل فلسطين لم يكونوا يواجهون عدواً واحداً مباشراً يتمثل فى اليهود الذين استقروا فى فلسطين وعصاباتهم المسلحة، بل كانوا يواجهون كذلك حكومة الانتداب الإنجليزى. وفى ذلك يقول إبراهيم طوقان:

لنا خصمان: ذو حول وطول
وآخر ذو احتيال واقتناص
تواصَوْا بينهم فأتى وبالاً
وإذلالاً لنا ذاك التواصي
مناهجُ للإبادة واضحاتٌ
وبالحسنى تنفَّذُ والرصاصِ

ووراء هذين الخصمين كانت الإمبريالية والصهيونية العالمية بإمكاناتها الهائلة.

كما كان من العوامل التى أضرت بالقضية الفلسطينية سلبيات الحكومات العربية والإسلامية، فقد تعاملت مع هذه القضية تعامل المتفرج، فلما أرادت هذه الحكومات أن تكسر جدار السلبية، وقعت فى أخطاء فادحة أودت بالأرض الفلسطينية، وشردت أهلها، ومكنت اليهود من أن يكونوا القوة الضاربة العاتية فى الشرق الأوسط.

وتحت وطأة ظروف قاسية.. بالغة القسوة أخذ الكفاح الفلسطينى صوراً متعددة يمكن أن نوجزها فيما يأتى:

١ - المؤتمرات والاجتماعات العامة، أو ما يمكن أن نسميه بالنشاط السياسى.

٢ - الكفاح المسلح: وكان له صورتان: الأولى هى الكفاح المسلح العفوى أو العام، والثانية هى الكفاح المسلح التنظيمى.

٣- النضال بالكلمة الشاعرة متفاعلة مع الأحداث، معبرة عن آلام الشعب، نابضة بأمانيه.

ونشأ عدد من الأحزاب، وكلها اتخذت من القضية الفلسطينية متكأ ومنطلقاً، ولكن شبت، واستعرت بينها صراعات وخلافات مقيتة، ندد بها الشعراء، لأنها تصرف الشعب عن أهدافه المثلى.

وإذا كان شعراء فلسطين قد أخذوا ينددون بمثل هذه الصراعات وتلك الخلافات الحزبية العقيمة، فقد نهض هؤلاء الشعراء مسلموهم ونصاراهم - يشيدون بتماسك العنصرين وتوحدهما فى مواجهة العدو الصهيونى، مما نجد صداه فى أبيات الشاعر المسيحى «إسكندر الخورى البيتجالى» يخاطب بها القدس.

بلدَ السلام وليس فيك سلامُ
منى إليك تحيةٌ وسلامُ

أنا إن نأيتُ وإن أقمتُ فإننى
لك مخلصٌ مالى سواكَ مقام

تفديك نصرانيتى، ويقيك من
غدرِ الزمان وكيده الإسلامُ

دينان أُمَّهما العروبة قبلما
كانت قساوسةٌ وكان إمام

◆◆◆

أما استخدام القوة: بحدها الأدنى الذى يتمثل فى الإضرابات والمظاهرات، وحدها الأعلى الذى يتمثل فى استخدام السلاح فقد أخذ من ناحية الشكل صورتين:

الصورة الأولى - الكفاح العفوى أو التلقائى.

والصورة الثانية: الكفاح المسلح التنظيمى.

وأعنى باللون الأول تلك الحركات الجماهيرية العنيفة التى كانت صدى أو رد فعل

لأحداث ووقائع هزت مشاعر الجماهير، وأدمت أحاسيسهم، وأشعرتهم بظلم فادح وإجحاف أليم يقع بوطنهم.

ومن أمثلة ذلك ما حدث سنة ١٩٢١ من هجوم الفلسطينيين على بعض المستعمرات اليهودية، وخصوصاً تلك التى تقع بين يافا وطولكرم، وصرع وجرح فيها قرابة مائتى يهودى، مقابل مائة وخمسة وعشرين عربياً، وكان ذلك رداً على تجمهر اليهود واتجاههم إلى يافا للاعتداء على العرب.

وكان من أهم الأحداث التى هزت مشاعر العرب والمسلمين وفجرت ثورة الغضب فى نفوس الفلسطينيين هو ما يسمى «بحادث البراق» إذ حاول اليهود الاعتداء على موقع البراق من المسجد الأقصى، وهو الموقع الذى يقال إن البراق قد نزل به ليلة الإسراء، مما أثار مشاعر الفلسطينيين، كان ذلك فى مساء ٢٤ من أيلول/ سبتمبر عام ١٩٢٨ ... مما دفع الفلسطينيين إلى التصدى لليهود، وتوالت الصدامات الدامية بين العرب واليهود، وكان أشدها ما وقع فى آب/ أغسطس عام ١٩٢٩، وسقط فيها مئات من القتلى، وأضعافهم من الجرحى.

وبدأت المحاكمات ونفذ حكم الإعدام صبيحة الثلاثاء ١٧ من حزيران/ يونيو عام ١٩٣٠ فى ثلاثة من الفلسطينيين، فكان أولهم فؤاد حجازى، وثانيهم محمد جمجموم، وثالثهم عطا الزير، وكان من المقرر رسمياً أن يكون الشهيد عطا الزير هو الثانى، ولكن محمد جمجموم حطم قيده، وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته وأعدم قبله.

وقد صور إبراهيم طوقان هذا اليوم المخضب بالدماء أروع تصوير مسجلاً فى شعر الوطن الخالد مصارع أولئك الشهداء، فكانت قصيدة «الثلاثاء الحمراء».

وقد بلغ إبراهيم طوقان بهذه القصيدة شأواً لا يبلغه إلا كبار الشعراء وعظماؤهم، لا فى حرارة الشعور وصدق الانفعال فحسب، ولكن فى منهج المعالجة، وبراعة التصوير: فهو لم يرث الشهداء الثلاثة رثاء مباشراً متحدثاً عن بطولتهم وبطولة أمتهم كما يفعل الشعراء قديماً وحديثاً، إنما قدم للقصيدة بمقدمة طويلة نعى فيها على ظلم المستعمر وخداعه وعدوانه على القيم الإنسانية، وسخر من المندوب السامى سخرية مرة.

ثم جعل كل ساعة من الساعات الثلاث تتحدث عن صاحبها الذى شنق فيها، فالساعه الأولى الذى شنق فيها فؤاد حجازى تقول:

أنا ساعة النفس الأبية
الفضل لى بالأسبقية
أنا بِكْرُ ساعاتٍ ثلاثٍ
كلها رمز الحميّة

وتقول الساعة الثانية، وهى الساعة التى شنق فيها محمد جمجموم:

قسماً بروح محمد
تلقى الردى حلْوَ الورودْ
قسماً بأمك عند قومِك
وهى تهتف بالنشيد
وترى العزاء عن ابنها
فى صيته الحسن البعيد
ما نال مَنْ خَدم البلادَ
أجلّ من أجر الشهيد

أما ساعة عطا الزير فتقول:

قسماً بروحك يا عطاء
وجنة الملكِ القديرْ
وصغارك الأشبال تبْكى
الليث بالدمع الغزير
ما أنقذ الوطن المفدّى
غير صبّارٍ جسورْ

وأنهى القصيدة بخاتمة جاءت طبيعية كأنها «القرار الحاسم» فى نهاية هذا العمل الدرامى العظيم.

قضية فلسطين
فى ديوان الشعر العربى (٢)

فى آب/ أغسطس ١٩٢٩ وقعت مصادمات بين القوات اليهودية، ومجاهدى فلسطين رداً على ما قامت به الصهاينة من اعتداءات على «موقع البراق» مما أدى إلى إعدام أربعة من كبار مجاهدى الحركة.

وفى الذكرى الرابعة لاستشهاد هؤلاء الشعراء نظم الشاعر إبراهيم طوقان قصيدة «الشهيد» المشهورة التى مطلعها:

عبس الخطب فابتسمْ

وطغى الهول فاقتحمْ

أما بداية حركة المقاومة الفدائية المنظمة فترتبط تاريخياً باسم «عز الدين القسام (١٨٨٢ -١٩٣٥)».

والذى يقرأ تاريخ الرجل يخرج بانطباع صادق يكشف لنا عن مفتاح شخصيته وهو «عشق الجهاد»، فالجهاد والتطلع إليه لا يقف عند مرحلة واحدة فى حياته، بل إن الجهاد تطلعاً ونزوعاً وممارسة يستغرق أغلب حياته ابتداء من شبابه وهو يطلب العلم، وانتهاء باستشهاده عام ١٩٣٥، ففى عام ١٩١٢ حينما هاجم الإيطاليون ليبيا - وكان القسام آنذاك فى سورية - استطاع أن يجند ٢٥٠ متطوعاً، وتجمعوا للذهاب إلى ليبيا للاشتراك فى مقاومة الغزو الإيطالى، ولكن لم يقدر لهذه المحاولة أن تُنجح لعدم توفر وسيلة مواصلات.

وقاوم الاستعمار الفرنسى هو وبعض تلاميذه حين نزل بسورية عام ١٩١٨، وفى عام ١٩٣٠ أنشأ جماعة سرية باسم «اليد السوداء» كان هدفها الرئيس «قتل اليهود» وزرع الرعب فى قلوبهم بوجه عام.

وكان مقتنعاً بأن تحرير فلسطين لن يتم من خلال الأفندية - على حد قوله - وأن أصحاب المصلحة فى تحرير فلسطين هم أقل الطبقات ثراء أو أكثرها فقراً، ويتكون منهم الفلاحون الذين طردوا من أراضيهم التى بيعت للصهيونيين، والعمال الذين أخرجوا من أعمالهم كى يشغلها عمال اليهود... ولذلك توجه الشيخ القسام مباشرة إلى هذه الفئات يبث فيها الوعى، ويرسم لها طريق الخلاص: كتاب الله فى يد، والبندقية فى يد أخرى.

ومما سبق نستطيع أن نقرر أن المسلك الجهادى لعز الدين القسام لم يكن كالأنماط الحزبية التقليدية التى تعطى اهتمامها الأكبر للشخصيات المشهورة اللامعة، مع التركيز على الجانب القومى.

كما خالف الاتجاه الشعبى التلقائى فى الكفاح ومواجهة العدو الصهيونى والعدو الإنجليزى، فمنهج القسام الجهادى كان ذا ملامح جديدة لافتة للنظر ومن أهم هذه الملامح ما يلى:

١ - أنه أفاد من تجاربه وتجارب غيره فى النضال، فلم يعتمد على الشعارات، بل اتجه اتجاهًا عملياً يعتمد على الكتمان دون إعلان.

٢ - أنه اتجه إلى أصحاب الولاء الحقيقى للأرض والذين يمكن أن نسميهم الضحايا الحقيقيين للسياسة الإنجليزية والغدر الصهيونى.

٣ -أنه بإيمان حقيقى عميق استطاع أن يستغل المشاعر الدينية لأصحابه ويربط الجهاد دائماً بالله، ولا شك أن الشعور الدينى هو أقوى البواعث والدوافع للتضحية والفداء.

٤ - أنه - وهو السورى الجنسية - قدم بنفسه المثل العملى والدليل الواقعى على أن قضية فلسطين لا تخص الفلسطينيين وحدهم، ولكنها قضية عربية، بل إسلامية فى المقام الأول.

ولو قدر للقسام أن يعيش وقدر لحركته الجهادية المحدودة أن تتسع معتمدة على الإيمان والنقاء - كما بدأت - لتغير مجرى التاريخ، لا أقول تاريخ فلسطين فحسب، ولكن تاريخ المنطقة كلها.

ومضى القسام مثلاً أعلى للكفاح العملى الصادق الذى يسترفد قوة الإيمان والتصميم

والثبات، وكان نهجه السوى فى الكفاح، وثباته الحازم واستشهاده البطولى منبعاً لا ينفد... نهل منه الشعراء، فصاغوا شعرا يمجد الشهادة والشهيد، والبطولات الفذة، ويرون أن هذا هو النهج السديد لإحراز النصر، وتخليص الأرض. يقول عبد الرحيم محمود مخاطباً العربى بعامة والفلسطينى بخاصة:

قل لا واتْبِعْها الفِعَالَ ولا تخفْ
وانظر هنالك كيف تُحنى الهامُ
اصهر بنارك غلّ عنْقِك ينصهرْ
فعلى الجماجم تركُز الأعلام
وأقم على الأشلاء صرحكَ إنما
من فوقه تُبنى العلا وتقام
واغصبْ حقوقك قط لا تسْتجدها
إن الأُلى سلبُوا الحقوقَ لئام
هذى طريقُك للحياة فلا تَحِدْ
قد سارها من قبلك القسّامُ

أما الشاعر «صادق عرنوس» فيعطى صورة أكثر تفصيلاً للقسام وطبيعته النفسية والخلقية ومنهجه فى الحياة والجهاد، ومعه «عصبة بدرية» آثروا الموت العزيز على الحياة المهينة.

يقول عرنوس فى قصيدته:

من شاء فليأخذْ عن القسامِ
انموذجَ الجنديُ فى الإسلام
وليتخذه إذا أراد تخلصاً
من ذله الموروث - خير إمام
ترك الكلامَ ورصْفَه لهُواته
وبضاعةُ الضعفاءِ محضُ كلام

مـــا كنت أعـــرفُـــه ولم أســـمعْ بـه

حـــتى تضـــوَّعَ طيـــبُـــه فى الشـــامِ

لم يلهـــه عـــرَضُ الحـــيـــاة وإن حـــلا

كـــلا ولـم يُشـــغف بنـيـل وســـام

مـــا زال يعـــمل ســـاتراً لجـــهـــوده

كـــالبـــدر مـــســـتـــتـــراً وراء غـــمـــام

حـــتى بدا فى عُـــصـــبـــة بدرية

فـــتكشـــفت عن مـــؤثرين كـــرام

قل للشـــهـــيـــد وصـــحـــبـــه أديتمُ

حقَّ الرســـالة فـــاذهبـــوا بســـلام

ويمجد «أبو سلمى» القسام فى داليته المشهورة «لهب القصيد» التى نظمها عام ١٩٣٦، ويحمل فيها حملة شعواء على ملوك العرب، ويحملهم مسئولية النكبات التى حلت آنذاك بشعوب فلسطين، ومنها قوله مخاطباً هؤلاء الملوك:

قـومـوا اسـمـعـوا مـن كل ناحـيـة يصـيح دمُ الشـهـيـدْ

قـــومـــوا انظروا القـــسَّـــامَ يشـــرق نورُه فـــوق الحـدود

يوحـى إلـى الـدنيـا ومـن فـــيـــهـــا بأسـرار الخلـود

ويرثى أبو سلمى الشهيد «أبا خالد محمد صالح الحمد» الذى استشهد عام ١٩٣٨ وكان واحداً من رجال القسَّام ورفيقاً له فى الكفاح المسلح فيقول عنه:

يمتُّ إلى القـــسّـــام بالنور والهـــدى

ولما يـزل فـــيـــنا إمـــامـــا هـاديا

وينظم أبو سلمى كذلك عام ١٩٣٦ - أى بعد استشهاد القسام بعام واحد - مسرحية شعرية بعنوان: «الثورة» .. وقد بعث بها مخطوطة لإبراهيم عبد القادر المازنى، فرد عليه برسالة يبدى فيها رأيه، ويقول فيها: «... إن جملة ما يخرج به القارئ من المشاهد جميعاً لا

يعطى فكرة كافية عن الثورة، ولا يرسم فى ذهن المرء صورة تامة، لأنه ليس هناك إلا تصوير حادثة الشيخ القسام - وهى أوفَى ما فى الكتاب وأبرعه، ثم بضعة مشاهد للثورة لا تكفى ولا تغنى، وأستثنى ما يتعلق بالقسام...»

وهذا يعنى أن القسام كان يشغل حيزاً ضخماً فى ضمير الشعراء، وأنه كان أهم ملمح من ملامح الثورة الفلسطينية، وأصبح القسام وكفاحه موضوعاً لأعمال فنية روائية، كما أصبح عنواناً لدواوين شعرية كاملة مثل ديوان: «رياح عز الدين القسام» لمحمد القيسى الذى نظم وصدر بعد استشهاد القسام بقرابة أربعين عاماً، ولعل أوْفَى قصائد الديوان وأجملها قصيدة «عز الدين القسام» جزء: من حديث ذات ليلة باردة وهى قصيدة ملحمية حوارية طويلة.

وبعد استشهاد القسام عام ١٩٣٥، واستجابة الفلسطينيين لنداءات ملوك العرب فى إنهاء الثورة (ثورة ١٩٣٦) وإنهاء الإضراب على أمل أن تغير حكومة الانتداب سياستها - شكلت الحكومة الإنجليزية ما يسمى «لجنة بيل» للتحقيق فيما حدث، وأوصت اللجنة بتقسيم فلسطين، ورفع الفلسطينيون السلاح من جديد، وكان هناك شبه إجماع على رفض التقسيم.

وكان أهم حدث عالمى بعد ذلك هو قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وقد انتهز اليهود سنى هذه الحرب فى تدريب رجالهم، وإعداد أنفسهم متظاهرين بتأييدهم للحلفاء وتعاطفهم معهم، بل الاشتراك الفعلى معهم فى القتال ضد الألمان والإيطاليين، ثم وسعوا من نطاق جهودهم السياسية على المستوى العالمى، وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية.

ولم يتوقف النضال الفلسطينى خلال الحرب العالمية الثانية ضد اليهود وضد حكومة الانتداب، ولم يُخْفِ الفلسطينيون فرحتهم وشماتتهم لما كان ينزل بالإنجليز والحلفاء من هزائم، وتعاطفهم مع الألمان وحماستهم لما يحرزونه من انتصارات. ففى قصيدة بعنوان: «هتلر» يقول الشاعر الفلسطينى برهان الدين العبوشى:

أذل فرنسا فى ثمانٍ وهذه
نساء فرنسا بالزعيم تحامينا

أقضَّ منام الإنجليـــز وقـــد غـــدا
جــلالتــه أنّى اســتــغــاث فــلاعــونا
تهلُّ عليــه الســابحــات قــذائفــا
لهـــا غنّة فى الجـــو إمـــا تدانينا

◆◆◆

خطيـئـتكم فى القـدس هذا جـزاؤها
تركـتم بهـا عـمــاتنا يتـبــاكـينا
هتكتم شــعـــار الله فى القـــدس ويلكم
فـــذوقـــوا عـــذاب الله ويلكم جـــونا

وكثرت سخرية الشعراء من الإنجليز الحلفاء وقد نزلت عليهم الهزائم تترى وكان العرب يعلقون آمالاً كباراً على الألمان إذا ما انتصروا فى الحرب.

وكان أهم حدث على المستوى العربى هو إنشاء الجامعة العربية، وقد تم التوقيع على ميثاقها فى ٢٢ من آذار/ مارس عام ١٩٤٥، وأعطت الجامعة العربية اهتماماً كبيراً لمشكلة فلسطين، وقد نص ميثاق إنشاء الجامعة فى ملحقه الأول على حق فلسطين فى الاستقلال، واختيار مجلس الجامعة «لمندوب عربى من فلسطين» للاشتراك فى أعماله.

وقد لهج الشعر بهذه المناسبة العظيمة على أمل أن يكون ميلاد الجامعة العربية ميلاداً لنهج عملى جديد لتحرير أرض فلسطين وأوطان العرب جميعاً. فالشاعر «محمد العدنانى» يرى فى ميلاد الجامعة العربية عيداً للعروبة كلها لأنها لمت شتات العرب، وأحيت مواتهم بالأمل، فيقول:

ليـهنىء العـربَ هذا العـيـدُ مـؤتلقـاً
كـــالصـــبح حفّ به يمنٌ وإجـــلالُ
ويا رجـــالاتِنا دامتْ مـــراجلكم
تغلى بهـــا همم شمٌّ وأعـــمـــال

بكم فلسطين قلبُ العـــرب قـــد حليتْ

فـــأنتم الصـــحب والأنصــــار والآل

ومن أطول القصائد فى هذه المناسبة قصيدة الشاعر الشهيد «عبد الرحيم محمود» التى مطلعها:

عـــيـــد بأحناء الصـــدور يقـــام

من وحـــيــــه الأشـــعـــار والإلهـــام

حلم لقـــد لابت عليـــه نفـــوسنا

أجـــملْ بأن تتـــحـــقق الأحـــلامُ!!

وتوالت المؤتمرات على المستويين العالمى والعربى بدعوى حل القضية، ومن جديد أحيى مشروع التقسيم فيما سمى بمشروع «مدرسون» عام ١٩٤٦، وقد رفضه الفلسطينيون والعرب.

وفى ٢٩ من تشرين ثان/ نوفمبر عام ١٩٤٧ أقرت الأمم المتحدة قرار التقسيم بأغلبية ساحقة كان قطباها الدولتين الكبيرتين أمريكا وروسيا، وكان ذلك مفجراً لثورة فلسطينية عاتية خاضها أبناء فلسطين وكثير من المتطوعين العرب، وظهرت بطولات فئة أعادت إلى الأذهان ذكرى بطولة عز الدين القسام واتسع سجل الشهداء لشخصيات جادت بنفسها عن رضا وطواعية، ونالت شرف الشهادة مثل: عبد القادر الحسينى الذى استشهد فى معركة القسطل، وشاعرنا عبد الرحيم محمود - شهيد معركة الشجرة.

ثم كان إعلان ميلاد إسرائيل، ودخول الجيوش العربية فلسطين، وبعدها توالت النكبات وما زالت تتوالى حتى الآن مما لا يجهله أحد.

وكان للشعر صولاته وجولاته فى هذه المناسبات، ومنه تلك القصيدة التى نظمها الشاعر «محمود الحوت» فى كانون أول/ ديسمبر عام ١٩٤٧ بعد صدور قرار التقسيم، أو «متفق التقطيع» كما يسميه. وفى هذه القصيدة يقول:

وهبَّ شـــعبٌ على صـــيـــحـــات صـــخـــرته

يســـتل من عـــذبات الله ممتـــشـــقـــاً

وراح يضـرمـهـا حـزباً مـقـدسـة

شرقيـةً بضـمـيـر الغـرب لـن تثـقـا

كم حـدثونا عن العـدل المقـيت وكم

كـانت لهـم حلبـات الظلم مـسـتبـقـاً

لـن نسـتـقـر ولن تهـدا مـراجلنا

والحق فـى عـالـم الأطمـاع قـد خنقـا

سـيـعلمـون وفـى التـاريخ مـوعظة

كـيف اسـتـمـدوا من التـقطيـع مـتـفـقـا؟

تلك هى قضية فلسطين أو قضية العصر التى ستظل شاهداً أبد الدهر على الظلم الفادح فى عالمنا المنكوس الموكوس، والتى ستظل على مدار القرون وصمة عار تجلل جبين الإنسانية وتؤرق ضمائرها: أرض التهبت وشعب تشرد، وعشرات من آلاف القتلى الأبرياء، ودولة من الأخسَّاء الأفاقين زرعت بليل فى أرض عربية دون وجه حق...

هذا هو الحصاد المر الذى تمخضت عنه قضية العصر، وما زال للحصاد بقية، وما زال للمرارة امتدادات... ما بقى أصحاب الأرض غرباء... وما بقى الغاصبون ثابتى الوجود، راسخى الأقدام فى أرض كانت مهد رسالات ومشهد نبوات.

وقد واكب الشعر هذه القضية بكل أبعادها ومناحيها... واكبها صرخة ودمعة وتأبينا، وواكبها إنذاراً ووعيداً، وواكبها تحميساً وتشجيعاً وواكبها زغرودة وتأميلاً وواكبها تعظيماً وتمجيداً... نعم لقد عايش هذا الشعر الأحداث والوقائع والناس والقادة والخنادق والنار والدم.

- لقد ذكّر الفلسطينيين بأمجاد أمتهم، وأصالة وجودهم حتى يكونوا حرباً على الغاصب الناهب الدخيل الذى دنس سحر الوجود وعبق التاريخ.

- ورسم لأبناء الوطن طريق التحرير والخلاص، وطريق البناء والنجاح والخلود.

- وتغنى بالقيم العليا، وانتصر للمستضعفين المنهوبين فى الأرض الذين كانوا هدفاً

وطعمة للمستعمر، ومن نهج نهجه من النفعيين وأدعياء الوطنية.

- ودعا إلى وحدة الصفوف والأهداف فى مواجهة أعداء لا يرحمون ولا يقنعون.. ولا يتوقفون.

- وبكى الشهداء الذين كتبوا بدمائهم وثيقة الولاء السرمدى الذى لا يموت ولا يهون، ودعا الرجال والشباب أن يتخذوا منهم القدوة فى طريق التأسى والاحتذاء.

- وفضح المخططات والقرارات التى نسجت بليل فى المحافل الدولية، تلك المحافل التى تسيطر عليها الصهيونية والإمبريالية العالمية.

- وشدّ على النوّام، وذم الكسالى، وحمل على كل غادر خوان.

وقد اجتزأنا بأقل القليل من هذا الشعر، على سبيل الإشارة والتمثيل للتدليل على معايشة الشعر لقضية الوطن، وكل ذلك كان يمثل عناصر من الرسالة الوطنية الإنسانية التى اضطلع بها الشعر الفلسطينى لعشرات من السنين.

أهـــم المراجـــع:

١- الأيدولوجية الصهيونية د. عبد الوهاب المسيرى.

٢ - الشعر العربى الحديث فى مأساة فلسطين د. كامل السوافيرى.

٣ - الاتجاهات الأدبية فى فلسطين والأردن. د. ناصر الدين الأسد.

٤ - القاموس السياسى. أحمد عطية الله.

٥- الحصاد المر (فلسطين بين عامى ١٩١٤ - ١٩٧٩) سامى هداوى. ترجمة د. فخرى حسين يغمور.

٦ - الحنين والغربة فى الشعر العربى الحديث. ماهر حسن فهمى.

٧ - محاضرات فى الشعر الحديث فى فلسطين والأردن. د. ناصر الدين الأسد.

٨ - الأعلام: خير الدين الزركلى.

٩ - مصر وفلسطين. د. عواطف عبد الرحمن.

١٠ - سياسة الاستعمار والصهيونية. حسن صبرى الخولى.

١١ - ديوان إبراهيم طوقان.

١٢ - ديوان أبى سلمى (الأعمال الكاملة).

١٣ - ديوان عبد الرحيم محمود.

١٤ - ديوان جبل النار لبرهان الدين العبوشى.

١٥ - ديوان رياح عز الدين القسام. محمد القيسى.

القدس والمسجد الأقصى
فى ضمير الشعراء

لقد كان الشعر العربى ـ ولا زال ـ حافظة تختزن الوقائع، ومرآة تعكس الأحداث والمشاعر، وقلبًا يلهج بالآلام والآمال والذكريات، فعاش ـ ولا زال ـ واقع الأمة الإسلامية فى سرّائها وضرائها ومنشطها ومكرهها، وأفراحها وأتراحها، وكان ـ ولا زال ـ من أهم العوامل التى تهز وجدان الأمة وضمائرها ويستحثها للنهوض ذيادًا عن الحياض، ودفاعًا عن الكرامة والأعراض.

ومصداقًا لما ذكرنا نعيش فى صحبة الشعراء مع «القدس والمسجد الأقصى» وحادينا قوله تعالى: ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (سورة الإسراء: ١).

فالقدس بلد مبارك ـ بنص القرآن الكريم ـ لأنها تحتضن الأقصى، والمسجد الأقصى هو قبلتنا الأولى، وهو البقعة الطيبة التى شاءت إرادة الله أن يسرى بنبينا الكريم إليها من المسجد الحرام.

والمسجد الأقصى واحد من المساجد الثلاثة التى لا تُشدُّ الرحال إلا إليها بنص الحديث النبوى الشريف، فلهذه المكانة الروحية السامية للمسجد الأقصى لهجت ألسنة الشعراء ارتباطًا بالإسراء، يقول أحمد شوقى فى ميميته المشهورة:

أسْرَى بِكَ اللهُ ليلاً إذْ ملائكُه
والرسْلُ فى المسجِدِ الأقصى على قَدَمِ
لما خَطَرْتَ به التفّوا بسيِّدِهِمْ
كالشُّهْبِ بالبدْرِ أو كالجنْدِ بالعلَمِ

صلَّى وراءَكَ منهمْ كلُّ ذي خطرٍ

ومن يفزْ بحبيبِ اللهِ يأتمِمِ

وكان للمحن التى نزلتْ بالقدس. وفيها المسجد الأقصى - أثرٌ قوى فى تفجير طاقاتِ الشعراء والتعبير عن حبهم وولائهم فى مناجياتٍ حارة صادقة، كما نرى فى الأبيات التالية للشاعر يوسف العظم:

يا قدسُ يا محرابُ يا مسجدُ

يا دُرّةَ الأكوانِ يا فرقدُ

سفوحُكِ الخضرُ ربوعُ المُنى

وتُربُكِ الياقوتُ والعسجدُ

كَمْ رُتِّلتْ فى أفقها آيةٌ

وكَمْ دعانا للهدى مُرشِدُ

أقدامُ عيسى باركتْ أرضَها

وفى سماها قدْ سَرَى أحمدُ

ويمضى الشاعر بوجدان متدفق بالحب للقدس فيبرز مكانتها الروحية فيقول:

الوحْىُ والتنزيلُ والأحْرُفُ

والآىُ والإنجيلُ والمصحفُ

وسورةُ الإسراءِ ما رُتِّلَتْ

إلا وأسماءُ الدُّنى تُرهَفُ

تَبَارَكَ القدسُ وما حولها

وصخرةُ القدسِ بنا تَهْتِفُ

فى كلِّ صدرٍ من دمى دَفْقَةٌ

وكلُّ عينٍ دمعةٌ تُنْزَفُ

وأرى الشاعر السورى «محمود مُفْلح» يناجى القدس بلد الإسراء، ويخلعُ عليها من

صفات «الأمومة» ما يشخّصها فى عين المتلقّى، فيقول:

يـا قُـــــــدسُ يـا بـلـد الإسـرـــــــراءِ يـا لـغـــــــةً
كـــالجـــمـــريُتـــقنُهـــا مَنْ كـــابَدَ الشَّـــجَنا
يـا وردة الجُـــــــرحِ يـا أُمَّ الـعـــــيــــــالِ فـــــهـلْ
يـنـسَى بَـنُوكِ الـنَّشَـــــامَى الـثَّـــــدْىَ والـلَّبَنَـا؟
مَنْ قـــــــالَ إنَّ المـآسـى لا تُـضــــاجـــــعُنَا
وإنـنـا بـعــــــــدُ لـمْ نـدفـعِ الـثـــــــمَـنَـا؟؟

ويعبر الشاعر عن الولاء الدائم والوفاء الحى الذى لم تقتله المحن ولم تنل منه النكبات، بل زادته قوة وتوهجًا وتجذُّرًا يقول محمود مفلح:

نـعـمْ تـرنَّـحـتْ الأجــــــســــــــادُ يـا وطـنـى
نـعـم ركـــــــبـنـا إلـيـكَ المركـبَ الخَـــــــشِنَـا
نعمْ تَسَـــــاقَطَتْ الأحــــــلامُ مُـــجْـــهَـــضَـــةً
وقَـــــــد عُـــــــرينـا وذُقْـنـا الـوَيـلَ والحَـــــزَنَا
نَعمْ ذُبِحْنَا وكـــــانَ الذبحُ مـــــتَّـــــصــــلاً
ومــــــــا رأيْـنَـا عـلـى جـــــــزَّارنـا وهَـنَـا
لكـنـنـا مـــــا خَـــفَـــضْنَا قطُّ جَـــبْـــهَـــتَنَا
ولا نَكسْنَا ســــيـــــوفَـــــا حـــــرَّةً وقَـنَـا
ولا نـسيـــــــنـا بـدرْبِ الـقــــــدسِ سُنْبُلَـةً
ولا رغـــيـــفَـــا بماءِ الـقـلـبِ قـــد عُـــجِنَا
ولا تـعــــــبنـا مـن الـتـــجــــديفِ فى لُجَجِ
كـــــانـت تهــــزُّ صــــوارينا لتُـــــغْــــرِقَنَا

وفى ترنيمةٍ متفائلة نرى الشاعر «سليم الزّعْنُون» يُغنّى للقدس معبرًا عن حبّه وامتزاجه بها وبذكرياته فيها، وفى قصيدته نرى بعض بصمات البوصيرى وشوقى فلنستمع لقطوف من مطوّلة سليم الزعنون:

يا أمّـــةَ القـــدسِ قـــد أصـــبـــحت فى الأمَم
أعــــــــزَّ أشـــــــهَـــــــرَ من نـارٍ عـلـى عَلَـمِ
غَنّى لك الشــــعــــــرُ من أحْلَى قــــصـــائِدِه
«ريمٌ عـلـى الـقـــــاعِ بـينَ الـبـــــانِ والـعَـلَـم»
لا تحـــــسَـــــــبُـــــوا الـدمْـعَ مِنْ حبٍ أذَلَّ لَـهُ
أو «مِـنْ تـذكُّــــرِ جـــــيــــرانٍ بِذِى سَـلَـم»
أو مـن بـقــــايـا شــــبــــاب عــــاودَتْـه رُؤى
أضَـــحتْ مع العُــمْـــرِ أطيـــافًـــا من الحُلُم:
إنَّ الـلـواتـى أَثَـرْنَ الحـبَّ فـى كــــــبـــــدى
خـطَـرن فـى جـنـبـــــاتِ المهْـــــدِ والحَـــــرَم
دفَـــــعْـنَ كـلّ عـــــــزيـزٍ فـى مـظـاهَـرَةٍ
فــــــالـزوجُ والـطـفْـلُ فى الأقْــــصـى عـلـى قـلـم
زغــــرودَةُ الـنـصـــرِ خـلـفَ الأهـل صــــارخَــــةً
لا لـلـخـــــضــــوع ولا لـلـظُّـلْـم والـظُّـلَـم

وكان للنكبات التى نزلت بالقدس وإصرار الصهاينة على تهويدها وتشبثهم بها، وإسالة الدم العربى فى ربوعها. كان لكل هذا أثر كبير فى جنوح كثير من الشعراء إلى البكائيات والسَّوْداويات فى شعرهم، كما نرى فى الأبيات التالية للشاعر حلمى الزَّواتى:

يـا قُــــدْسُ يـا ألـق الـطفــــولـة نـاعــــسًـــا
الحـلـمُ بـاتَ عـلـى هـضَـــابِـك بـاكـــيًـــا
مَــــــدَّ الـظـلامُ عـلـى ربـاكِ جَـنَـاحَـــــهُ
والـلـيـلُ مـن فــــوقِ المآذنِ ســــاجـــيًــــا
والمســـــجـــــد الأقـــصـى يـقـلِّب كــــفَّــــهُ
وأذانُــهُ صــــــوتُ الـعــــــواصـفِ داويًـا

حَشَدوا لـه الأوغادَ رغمَ انوفِهم
فتجمعوا سداً ونهراً طامياً

ويفزع الشاعرُ يوسف العظم لتلك الحال التى صارت إليها القدس فنسمع منه هذه الصرخة الإيمانية المدوّية:

يا قدسُ يا محرابُ يا منْبَرُ
يا نورُ يا إيمانُ يا عنْبَر
أقدامُ مَنْ داسَتْ رحابَ الهدى؟
ووجهُ مَنْ فى ساحِها اغْبَرُ؟
وكَفُّ مَنْ تزرعُ أرضى وقدْ
حَنا عليها ساعِدى الأسْمَرُ؟
من لوّثَ الصخرةَ تلكَ التى
كانتْ بمِسْرى أحمدٍ تفْخَرُ
وأمْطَرَ القدسَ بأحقادِهِ
فاحْتَرقَ اليابسُ والأخضَرُ؟
ودنّسَ المهدَ على طهره
إلا عدو جاحِدٌ أكفرُ؟

وحينما تهلُ ذكرى الإسراء يستبد الحزن بالشاعر جابر قميحة لما نزل بالقدس من محن وبلاء، كما يستبد به الشوق إلى زيارة المسجد الأقصى ويحقق ما أراد، ولكن فى سياحة روحية ولّدتها أحلام اليقظة وفى محراب الأقصى تستغرقه روحانية غامرة لم تنتزعه منها إلا الأيادى السود.. أيادى الصهاينةِ الغادرين الأدعياء...

يقول الشاعر جابر قميحة:

لقد هلّتْ رُؤَى الذِكْرَى ومِلْءُ قلوبنا الآهُ

وقد نزّت جـراحُ القلـــــ ـــب ممّا قدْ لقينـــاهُ

فَطـــرْتُ على جَناح الشـ ـوْقِ للأقصى لأحيـــاهُ

وهـــا قد جئتُ يا محـرا بُ أستَدْفي بذكـــــراهُ

ودمـــع الحزْنِ فى الصّلـ ـــــوات رَوّانــى ورواهُ

أنا لـــن أبرَحَ المحـــــرَا بَ حتَّى يأذنَ اللـــهُ

ذَرُونِى أرتـــوى منــــهُ وأشبَـعُ مِـنْ نَجَـــاواه

ولكــنّ الأيادى السُّـــودَ شـّـــدَتْنى فـــــوَا آهُ

وقالُـــوا لمْ يَعُـــدْ لـــكُمُ ولا حتّى بقَـــــــايَاهُ

هنـــا قدْ كـانَ هيكلنـــا بَنَيْنَــــاهُ وشـــــدْنَاهُ

ومع القدس والمسجد الأقصى نرى الشاعر يوسف العظم يبرزُ المفارقة الهائلة بين حال القدس التى كانت وحال القدس التى صارت، حتى تتبين فداحةُ الجنايةِ الصهيونية على البلدة الطيبة المباركة. يقول يوسف العظم:

أبَعْدَ وجْهٍ مُشْـرِقٍ بالتُّقى يُطلُّ وَجْهٌ كالحٌ أسْـوَدُ؟

وبَعْدَ ليثٍ فى عرينِ الثَّـرى يَحُلُّ كلبٌ راحَ يستأسِدُ؟

وبَعْدَ شعبٍ دينه رحمـــةٌ يَحُلُّ مَنْ وُجدَانُهُ يَحْقِدُ؟

ويمضى الشاعر عمر بهاء الدين الأميرىّ شريداً فى الله، يضربُ فى فجاج الأرض تحت لهيب الغربة ويَحُلُّ عليه العيد ـ عيدَ الفطر. وهو فى مدينة الرباط بالمغرب فلا نرى على وجهه ابتسامة الفرح ويقال له: «إنه العيد أين بشاشتك؟» فكان جوابُه:

مـــا العـــيـــدُ والقـــدسُ فى الأغـــلالِ رازحـــةٌ
وفــى الخـلــيـلِ مـــلـمــــــــاتٌ وتــشـــــــريـدُ

وزَارَةُ المســـجـــدِ الأقـــصــى مـــضـــرَّجَـــةُ الـ
أصـــــــــــداءِ بـــالـــدم، والـــويـــلات تَـــرْديـــدُ

واللاجـــئـــون صـــيـــامُ العـــيـــد فـطـرُهُـمُ
وبِـشْـــرُ أطـفـــالِـهِم هـمٌّ وتـســـهـــيـــدُ

وكان حرق المسجد الأقصى من أخس الجرائم التى ارتكبها الصهاينة فى تاريخهم الطويل، وتتوهجُ مشاعرُ الشعراء وقرائهمُ أمام هذه الجناية الفادحة، وبعد مرور عام على هذه الجناية البشعة يقول الشاعر عبد الرحمن على العبادىّ:

جَـــــرَعْـنـا لـوعـــــة الـذكــــــرَى
بـيــــــوم الـقـــــــدسِ والمسْــــــرَى
وأنْــــت فـــى حَـــنَــايَـــانَـــا
قُـلُـوبٌ مـلْـتْ الـصـــــــبْـــــــرا
ونـارٌ فـى رحـــــــاب الـقـــــــدْ
سِ قَـــــدْ اذكتْ بِـنَـا جَـــــمْـــــرَا
وذِى أعْــــــــوامُـــنـا تمـضـى
عـلـى آلامِـنـا تَـتْـــــــــرَى
ويَـمـــــضى الجـــيـلُ فى صَـــمتٍ
لـيُـــصـــرَعَ بـالـرَّدى سِـــــرًا
وأَهْـلُ المســـجِـــدِ المقـــهـــو
رِ فـى الأغــــلالِ كـــــالأسْـــــرى

وفى الذكرى الكئيبة نفسها يعجزُ الشاعرُ عمر بهاء الدين الأميرى أن يحولَ بين نفسه وبين البكاء، ولكن دموعه لم تكن دموعَ الضعف والاستسلام ولكنها كانت دموعَ الحرِّ الأبىّ التى تشحنُ النفسَ بطاقةِ العزم وضِرامِ الإقدام يقول عمر الأميرى:

يـا يـومَ مـــعـــراج الـرســـولِ وأنـتَ فـى
كــــرِّ الـدهـورِ هـدايـةٌ وســـــلامُ
عـــذرًا إذا خَـنَـق الـبـكـاءُ تحـيـتـى
لـك والأبـىُّ عـلـى الـبـكـاءِ يُـلامُ
لـكـنَّـهُ الأقــصـى وفـى نـكـبـاتـه
وحـريقـه حـبْـسُ الـدمـوعِ حَـرَامُ

دَمْـعُ الأبـيِّ الحـــــرُّ بـعضُ جـــــهـــــادِهِ

وزفـــــيــــــرُهُ عـنـدَ الـوغـى إقـــــدَامُ

فـــالقـــدس نارُ مـــحـــاجـــرى ومـــشـــاعـــرى

هَـوْلٌ يَـغُـــــولُ هَـنَـاءَتـى وحـــــمِــــامُ

هـل تطمـــــئِنُّ بِـىَ الـصـــــلاةُ وقـــــبـلـتـى الـ

أولـى يُـدنِّـسُـــــهـــــا خَـنَـا وأثـامُ؟

فـى عـــــيـنِ إيمـــــانـي قـــــذىً وأذىً وفـى

قـلـبِ الـسـكـيـنـةِ لـلـهـــــمـــــومِ عُـــــرامُ

وقد يُفْجَعُ الشاعر ويمزقه الجزع والأسى الأليم إذا ما رأى فى حاضره تقاعدًا وتكاسلاً عن تخليص مسْرَى النبى صلى الله عليه وسلم، فيفْزَعُ بوجدانه إلى الشخصيات الإسلامية التاريخية ذات البطولاتِ والأمجاد والأريحيَّة، وخصوصًا صلاح الدين الأيوبى، محرر القدسِ من أيدى الصليبيين، كما نرى فى قول الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود:

قم يـا صـــــلاحُ فـــقـــد حُمَّ الـقـــضـــاءُ بنا

قـم يـا صـــــلاحُ فـلـن نَبْـــقَى عـلـى الهـــونِ

قُمْ يـا صـــــلاحُ فـــذا مَـــسْـــرى النبىِّ غَـــدَا

مـــــأوى الـذئـابِ ومَـلـجَـــا كـلُ مـــــأفـــــون

الخَـــصْمُ جَـــمَّع أمـــوالاً وأعـــتـــدة

وجَـنَّـد الـغـــيـــدَ فـى ســـاحِ الميـــادينِ

ونَحنُ قـــحطانُ أسْـــدُ الغـــابِ قـــد جَـــفَلَتْ

قـلـوبُنـا ونـزَلْـنَـا حـــــمـــــأةُ الـطـيـنِ

ويقول الشاعر يوسف العظم:

هـذهِ خـــــفـــــقـــــةُ قـلـبٍ فـى الحنـايا

ودمـــــاءٌ قـــــد تـنـزَّت مـن جـــــراحِـى

خطّها نسرٌ جريحٌ شامخٌ
نَهَشَتْهُ الطيرُ من كلّ جَناحِ
باتَ فِي الأقصى يناجي جُرْحَهُ
يا لحطينَ تباهى بصلاحِ
فمتى يَبْسِمُ للكون غدِي
ومتى يشرقُ للدنيا صباحِي؟

بل إن الشاعر ليستصرخ. فى تاريخنا الزاهى. خلفاءَ وقادةَ وأمةَ وجيوشًا فيقول:

وفؤادُ الأقصى الجريحُ يُنادِي
أينَ عهدُ اليرموكِ والقادسيَّة؟
أينَ راياتُ خالدٍ وصلاحٍ
وزحوفٌ لطارقٍ... وأُميَّةْ؟
أينَ عهدُ الفاروقِ غيرَ ذليلٍ
عَفَّ قولًا، وطابَ فعلاً ونيَّةْ؟
وجيوشٌ قَدْ اشْرَعَتْهَا سيوفًا
وقلوبٌ نظيفةٌ ونقيَّةْ؟
ونداءٌ للتائهات حيارى
أين خَنْساؤنا، وأين سميَّةْ؟
ورماحٌ فى كفُّ خولةَ تزهو
وسيوفٌ فى راحةِ المازنيَّةْ؟

وإذا كانت الجنايات التى ارتكبها الصهاينة والمحنُ التى نزلتْ بالقدس والأقصى قد جعلت الشعر العربىّ ينزُّ دمعًا وأسى وحزنًا، فإن كثيرين من الشعراء كانت لهم رؤيةٌ متفائلة تستشرفُ فجرَ النصر وتؤمنُ بطلوعه فى المستقبل القريب، كما نرى فى قول عمر بهاء الدين الأميرى:

سَـــتَـــرَى أعـــيـنُ الـعـــصـــورِ انْبِـــلاجَـــا

مِـنْ دياجــــــيـــــرِنـا لـنـورِ هُـدَانـا

كـــانَ دينُ الإســـلامِ ـ مُـــذْ كـــانَ ـ هـدْيًا

لـلـبـــرايـا... ورحـــمـــةً.. وأمـــانـا

وســـتـــبـــقـى فـــيـنا حَـــوافِـــزُهُ المُثْـ

ـلَى، ويَبْـــقَى فى أمْـــرِنا فُـــرقَـــانا

سَـنُوالى جِـــهـــادَنـا فى فـلسطيـ

ـنَ نُقِـــيمُ الـصـــلاةَ فى أقـــصَـــانا

مَـــوعِـــدٌ مُـــبْـــرَمٌ إذا مـــاتَ عَـنْـهُ

شَـــيْـخُنا القَـــرْمُ(١) فـــيـــه يَنْمـــو فَـــتَـــانَا

والشاعر على العبادىّ يرى أن العدوَّ الصهيونى إنْ كان قدْ نجح مؤقتًا فى احتلال أرض فإنه قد عجز عن استعباد نفوس دَرَجَتْ على الحرية وعاهدت ربها على الصبر والثبات يقول الشاعر:

ولـكـنَّـا بـرغـم الـقـــــهْـــــرِ

لـن نـســـتـــمـــرِئَ الـذلا

ولـو مـن حِـــقْـــدِهـم مـنـا

أبـاحُـــونـا لـهـمْ قَـــتْـــلا

لـيـــفْـــعَـل ذلـكَ الـطـاغـ

ـوتُ مـــا يَـنْـوِى بِـنَـا فِـــعْـــلاً

فـلَـــنْ يـــســـطـيـــعَ أن يَـــثْـنِـى

لـنـا عَـــزْمًـــا ولا قَـــوْلاً

ولـــن يـــسْـتَـطِـيـــعَ أن يُـــســـلـبـ

ـن فـى أعـنـاقـنـا الـغِـــــلا

وتتدفق آمال الشاعر الإحسائي يوسف أبو سَعْد على رحاب أكثر امتداداً واتساعاً فيرنو. لا إلى تحرير القدس فحسب. لكن الأرض السليبة كلُّها إن لم يكن على أيدينا فعلى أيدى أبنائنا:

ويَعُـــــودُ مــــــا سَلَبَ العــــــدا مِنْ أرْضِنَا
وعَلَى الدخِـــيلِ مَـــــذلَّةٌ وصَـــــفَـــارُ
نَصْـــــــرٌ مِنَ المولى اللطيفِ يحُـــوُطنا
وعَلَى الرؤوس يرفُّ ثمَّـــــــة غـــــــارُ
وغَـــداً لِعُـــرْسِ القـــدس يُسْـــرع ركــبُنَا
ويقـــرُّ مِنْ بَعْـــد الضـــيـــاع قـــرارُ
ونـنامُ مِلْءَ جُـــفُـــوننا فِى حـــضْنِهـــا
نـومَـــــا يُـرِينـا مـــــا يـرى الأبـرارُ

بقى علينا أن نعرف أن بين اليأس والأمل مساحةً نفسيةً يجب أن نشغلها بالصبر والعزم والإيمان، وإنها لقيمٌ لو أخذنا أنفسنا بها لقادتنا إلى النصر المؤزر المبين. لنذكر ذلك ولنضعه نصب عيوننا بعد أن عشنا مع هذه الأصوات الشعرية النقية المخلصة ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾.

---

(١) القرم: الأصيل الكريم.

الشهادة والشهداء .. فى الشعر الفلسطينى

ما أصدق أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) عندما قال لخالد بن الوليد: «يا خالد احرصْ على الموت توهبْ لك الحياة». وهذا التوجيه يحمل معنى جليلاً كبيرًا لأنه يضع قاعدة تبنى عليها الأمة وجودها ونهوضها وخلودها.

فحرص الفرد المخلص لدينه وأمته على الموت يعنى إلغاء الخوف والفزع من حياته، والتقدم فى ميدان النضال بقوة وشجاعة وعزم وإصرار، فإذا ما حقق النصر يكون بذلك قد حقق لذاته «حياة الشرف والبطولة، وحقق لأمته «حياة النصر والمهابة والنهوض».

وإذا ما نال الشهادة فقد حقق لنفسه «حياة الخلود والنعيم مع الذين هم «أحياء عند ربهم يرزقون»، ويكون بذلك قد قدم نفسه فداء لدينه وأمته، لتواصل مسيرتها الظافرة التى تغذيها مواكب الشهداء:

ولا يبنى الممالك كالضحايا ولا يُدْنى الحقوق ولا يُحقُّ

◆◆◆

وكانت مسيرة الشعب الفلسطينى هى «مسيرة المواجهة»... مواجهة القوى الاستعمارية العالمية، ومواجهة الصهيونية الغاشمة، ومواجهة البريطانيين الذين حكموا فلسطين سنوات الانتداب بالحديد والنار فى تعاملهم مع الفلسطينيين، وباللطف والممالأة والمساندة لليهود، إلى أن قامت دولتهم الآثمة على أرض فلسطين.

ورفع الفلسطينيون السلاح، وأشعلوا ثورات عاتية، وحققوا انتصارات باهرة، وسقط منهم مئات من الشهداء فى الربع الثانى من القرن العشرين. من أشهرهم: عز الدين القسام، وعبد الرحيم محمود، وعبد القادر الحسينى، وحسن ياسين..

وكان الشعر مُواكبًا لحركة الجهاد الفلسطينى: سجّل مسيرتها وردد نبضها وسعّر أوارها، وخلد أبطالها، وعطر صفحاته بذكر الشهادة والشهداء، وفى السطور التالية نعرض. فى

إيجاز شديد. لبعض الشعر الذى صور الشهادة والشهداء، وما أكثره فى ديوان الشعر الفلسطينى والشعر العربى:

وباستقراء هذا الشعر نجده قد نهج نهجين:

النهج الأول: يتمثل فى الحديث عن الشهادة كقيمة بطولية إنسانية عليا، بل كأسمى هذه القيم جمعاء، والحديث عن الشهيد أو الشهداء دون تحديد أسماء، أو ارتباط بأحداث ووقائع معينة، وإن كانت هذه الوقائع هى القوة الدافعة لنظم هذه الأشعار.

ومن هذه النماذج التى تمثل هذا النهج قصيدة «الشهيد» لإبراهيم طوقان، وفيها يصور الشهيد مرحبًا بالموت، مستهينًا بالأخطار، مقدامًا غير محْجام، قوى الهمة والعزيمة، همه الأول نصرة الحق، وتحرير الأمة:

عبسَ الخطبُ فابتسمْ — وطغى الهول فاقتحمْ
نفسُه طوْع همةٍ — وجَمتْ دونها الهمم
وهْى من عنصر الفداء — ، ومن جوهر الكرم
ومن الحقُ جذْوةٌ — لفْحها حرّز الأممْ

❖❖❖

وفى قصيدة «الشهيد المجهول» يتحدث الشاعر الفلسطينى «أبو سلمى» عن خلود الشهيد، وكيف أنه قدوة شامخة للأجيال، ورمز للمجد المتواصل على مدى الأزمان:

الأفْق باكِ أيها المجهولُ — وعلى جوانبه دمٌ مطْلول
حملتْك أجنحة الزمان على المدى — ما الخلدُ إلا حيث أنت نزيل
«من أنت»؟ صاح التُرب وهو مخضبٌ — فأجابه دمك الزكى يقولُ:
«إنى أخٌ للثائرين ووالدٌ — للناشئين، وللحياة رسولُ

أنا فى ديار العُـرْب شـارة مـجـدهم
أنا رمـزُ وحـدتهم، أنا المجـهـول»

❖❖❖

أما النهج الثانى فيتمثل فى ذكر شهيد معروف، وذلك بذكر أعماله وتضحياته ومظاهر جهاده، وأبعاد شخصيته النفسية والخلقية، ومن أشهر هؤلاء الشهيد القائد «عز الدين القسام». يقول «أبو سلمى» مخاطبًا الفلسطينيين والعرب:

قومُوا اسْمعوا من كل ناحية يصيح دمُ الشهيدُ
قوموا انظروا القسامَ يشرف نوره فوق الصُرودْ
يوحى إلى الدنيا ومَن فيها بأسرار الخلودْ

ويتحدث عن «أبى خالد محمد صالح الحمد» الذى استشهد سنة ١٩٣٨، وكان واحدًا من رجال القسام، ورفيقًا له فى الكفاح المسلح، فيقول:

يَمُتُّ إلى القسام بالنور والهدى
ولما يزلْ فينا إمامًا وهاديًا

أما الشاعر «صادق عرنوس» فيعطى صورة أكثر تفصيلاً لعز الدين القسام، وطبيعته النفسية والخلقية، ومنهجه فى الحياة والجهاد، ومعه «عصبة بدرية» آثروا الموت العزيز على الحياة المهينة. يقول «عرنوس» فى قصيدته:

من شاءَ فليأخذْ عن القسَّام
انموذج الجندىّ فى الإسلامِ
وليتخذْه إذا أراد تخلصًا
من ذُله الموروث خير إمام
تركَ الكلامَ ورَصْفه لهواته
وبضاعة الضعفاءِ محْضُ كلام
ما كنتُ أعرفه، ولم أسمعْ به
حتى تضرّع طيبُه فى الشامِ

لم يُلْهِه عَرضُ الحياة وإن حَلا
كلاّ، ولم يشغفْ بنيل وسام

ما زالَ يعملُ ساترًا مجهوده
كالبدر مستترًا وراء غمام

حتى بدا فى عصبةٍ بدْرية
فتكشفتْ عن مُؤثرين كرامِ

قل للشهيدِ وصحبه أديتمُ
حقَّ الرسالة فاذهبوا بسلام

❖❖❖

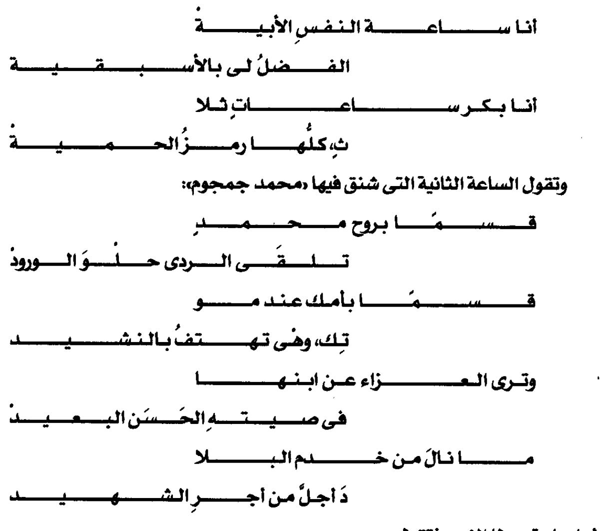
على أنه كان من أبناء الشعب الفلسطينى شهداء من عامة الناس الذين لم تعرفهم الزعامة، ولم تعانقهم الشهرة، ومع ذلك خلدهم الشعر بأسمائهم شأن القادة والزعماء، ومن هؤلاء الشهداء الثلاثة الذين ارتبطت أسماؤهم بما يسمى تاريخيًا بـ «حادث البراق» وهو من أهم الأحداث التى هزت مشاعر العرب والمسلمين، وفجرت ثورة الغضب فى نفوس الفلسطينيين..

وهو أن اليهود حاولوا الاعتداء على موقع البراق فى المسجد الأقصى، وهو الموقع الذى يقال إن البراق قد نزل به ليلة الإسراء، مما أثار مشاعر الفلسطينيين، كان ذلك فى مساء ٢٤ من أيلول/ سبتمبر عام ١٩٢٨، مما دفعهم للتصدى لليهود، وتوالت الصدامات الدامية بين العرب وبينهم، وكان أشدها ما وقع فى آب/ أغسطس عام ١٩٢٩، وسقط فيها مئات من القتلى، وأضعافهم من الجرحى.

وبدأت المحاكمات على أيدى حكومة المستعمر البريطانى، ونفذ حكم الإعدام صبيحة الثلاثاء ١٧ من حزيران/ يونيو عام ١٩٣٠ فى ثلاثة من الفلسطينيين هم: فؤاد حجازى، ومحمد جمجوم، وعطا الزير، وكان من المقرر رسميًا أن يكون عطا الزير هو الثانى إعدامًا، ولكن محمد جمجوم حطم قيده، وزاحم رفيقه على الدوْر حتى فاز ببغيته، وأعدم قبله.

صور «إبراهيم طوقان» هذا اليوم الدامى أروع تصوير مسجلاً بالشعر مصارع هؤلاء الشهداء الخالدين أروع تصوير فى قصيدة (الثلاثاء الحمراء).

وقد بلغ إبراهيم طوقان بهذه القصيدة شأوا لا يبلغه إلا كبار الشعراء وعظماؤهم، لا فى حرارة الشعور وصدق الانفعال فحسب، ولكن فى منهج المعالجة، وبراعة التصوير: فهو لم يرثِ الشهداء الثلاثة رثاء مباشرًا بالحديث عن بطولتهم وبطولة أمتهم كما يفعل الشعراء قديمًا وحديثًا، إنما قدم للقصيدة بمقدمة طويلة حمل فيها على ظلم المستعمر وخداعه وعدوانه على القيم الإنسانية، وسخر من المندوب السامى البريطانى سخرية مرة، ثم جعل كل ساعة من الساعات الثلاث تتحدث عن صاحبها الذى شنق فيها، فالساعة الأولى التى شنق فيها «فؤاد حجازى» تقول:



أنا ساعةُ النفسِ الأبيةْ
الفضلُ لى بالأسبقيةْ

أنا بكرُ ساعاتٍ ثلا
ثٍ، كلُّها رمزُ الحميةْ

وتقول الساعة الثانية التى شنق فيها «محمد جمجوم»:

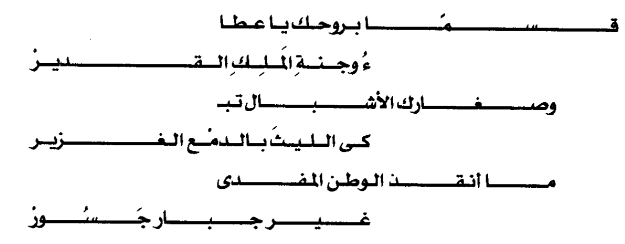
قسمًا بروح محمدٍ
تلقَى الردى حلْوَ الورودْ

قسمًا بأمك عند مو
تِك، وهْى تهتفُ بالنشيد

وترى العزاء عن ابنها
فى صيتهِ الحَسَنِ البعيدْ

ما نالَ من خدم البلا
دَ أجلَّ من أجرِ الشهيد

أما ساعة «عطا الزير» فتقول:


قسمًا بروحك يا عطا ءُ وجنةِ المَلِكِ القديرْ

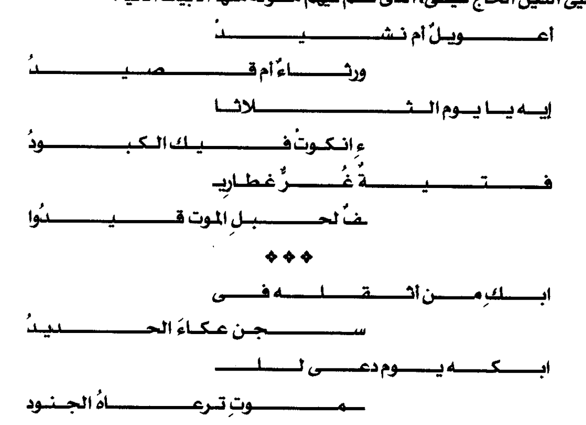
وصغارك الأشبال تبـ كى الليثَ بالدمْع الغزير

ما أنقذ الوطن المفدى غير جبار جَسُورْ

وأنهى إبراهيم طوقان هذه القصيدة القوية بخاتمة جاءت طبيعية كأنها القرار الحاسم فى نهاية هذا العمل الشعرى الدرامى العظيم..

وهذه القصيدة فى نهجها وطوابعها وأبعادها الفنية التجديدية. تتسع لدراسة مستقلة طويلة لا يتسع لها مقامنا هذا.

وكان إعدام هؤلاء الثلاثة، وما أبدوه من شجاعة فى مواجهة الموت، واستهانة به، وإقدام عليه دون تردد أو فزع، مثارًا فجَّر القولَ عند شعراء غير إبراهيم طوقان، ومن هؤلاء الشاعر «محيى الدين الحاج عيسى» الذى نظم فيهم مطولة منها الأبيات الآتية:


أعويلٌ أم نشيدْ ورثاءٌ أم قصيدُ

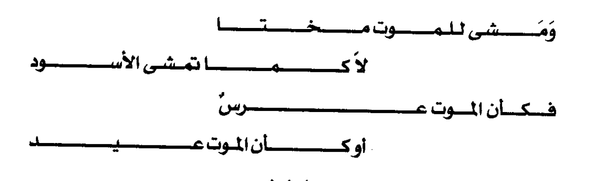
إيه يا يوم الثلاثا ءِ انكوتْ فيك الكبودُ

فتيةٌ غُرٌّ غطاريـ فُ لحبلِ الموت قيدُوا

◆◆◆

ابكِ من أثقاله فى سجن عكاءَ الحديدُ

ابكه يوم دعى للـ موتِ ترعاهُ الجنود


وَمَشى للموت مختا
لاً كما تمشى الأسود
فكأن الموت عرسٌ
أو كأن الموت عيد

◆◆◆

ويبقى مثل هذا الشعر خالداً فى ضمير الأجيال لا يفنى ولا يبلى؛ لأنه يسجل مسيرة البطولة والأبطال الذين هانت عليهم نفوسهم، فجادوا بها فى سبيل الدين والوطن، وطلبوا الموت فوهبت لهم ولأمتهم الحياة، لا الحياة الذاوية الفانية، ولكن الحياة الباقية الخالدة. وهم بمسلكهم هذا يقدمون القدوة المثلى للأجيال القادمة، ويخطون بدمائهم كلمات شامخة تقول:

لا بقاء بلا تضحية، ولا نهوض بلا فداء، ولا نصر بلا إيثار، والحق غالب.. غالب.. غالب ولو طال الزمن، وكره الكافرون.

من المراجع:

١. ديوان: إبراهيم طوقان.
٢. ديوان أبى سلمى (عبد الكريم الكرمى): الأعمال الكاملة.
٣. الشعر الحديث فى فلسطين والأردن: د. ناصر الدين الأسد.
٤. أخى إبراهيم: فدوى طوقان (فى تصدير ديوان شقيقها).
٥. الحركة الوطنية الفلسطينية: ناجى علوش.
٦. التيار الإسلامى فى فلسطين وأثره فى حركة الجهاد: محسن محمد صالح.
٧. الشاعر الفلسطينى الشهيد عبد الرحيم محمود: د. جابر قميحة.
٨. مجلة الفتح العدد ٤٧٤ من السنة العاشرة.

ويلكم.. إن دمها فى أعناقكم
الخدعة الكبرى ولَهَبُ القَصيد

حتى يلتهم الصهاينة فلسطين ويقيموا دولتهم الآثمة، ومنها ينطلقون لتحقيق مخططهم فى إنشاء إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، والسيطرة على مقدرات العالم كله جندوا كل وسيلة، وسلكوا كل مسلك يجدون فيه ما يحقق جزءاً من نجاحهم، ومن هذه السبل تجنيد الجماعات والمنظمات الخارجية التى تتفق مذهبياً مع الصهيونية، ولو كانت هذه المنظمات فى قلب البلاد العربية والإسلامية.

وكان الشعب الفلسطينى - على ضعف إمكاناته وسوء حالته الاقتصادية - يرفع السلاح فى وجه الإنجليز واليهود. وبدأ «وايزمان» رئيس المنظمة الصهيونية العالمية يستعين - ضمن من استعان بهم - بالمحفل الماسونى المصرى الذى وجه باسم الحرية والإخاء والمساواة نداء إلى الفلسطينيين فى ٢ من نيسان/ أبريل عام ١٩٢٢ يغلب عليه طابع الإغراء بمستقبل ثرى سعيد إذا تعاونوا مع اليهود، ومما جاء فيه «... إلى التجار الذين تتنافر مصالحهم مع العنف والعدوان وسفك الدماء وتخريب العمران...

إلى العمال والصناع الذين يستفيدون ويفيدون من ازدياد أسباب الثروة وتوافر عوامل الرخاء فى فلسطين...

إلى المزارعين والأكارين الذين سينالون أكبر المنافع باستخدام الأساليب الحديثة التى لا تلبث أن تتوافد عليهم فتعمهم الرفاهية وتتحسن أحوالهم المادية والأدبية».

وكذلك يوجه البيان الخطاب إلى «أئمة الدين الحنيف.. وأهل العقول الراجحة... وأرباب الأقلام والصحف.. وأكابر المسلمين وأعيانهم وأصحاب المناصب وذوى الحل والعقد...» وكذلك إلى المجاهدين، (وفى البيان يلقبهم بالمشاغبين) أولئك «الذين لا تؤدى أعمالهم إلى شىء سوى الضرر بمصالح العرب الحقة...».

وفى نهاية هذا البيان الموجه: «يا أهل فلسطين، تذكروا أن اليهود هم إخوتكم، وأبناء عمومتكم، قد ركبوا متن الغربة، فأفلحوا ونجحوا، ثم هم اليوم يطمحون للرجوع إليكم لفائدة وعظمة الوطن المشترك العام بما أحرزوه من مال، وما اكتسبوه من خبرة وعرفان.... حافظوا على شرف العرب القديم، وعلى مجدهم الصميم، ولا تندفعوا وراء الأيدى الخفية فى تيار الظلم والعدوان... وإياكم... وإياكم أن تسفكوا الدم الذى حرم الله..».

البيان الملوكي

ولم يترك هذا البيان الماسونى أى أثر يعيق أو يضعف من مسيرة الجهاد الفلسطينى الذى أخذ صورته المثلى فى حركة عز الدين القسام، ذلك البطل الذى نازل القوات البريطانية المدعمة بالطائرات فى معركة «يعبد» يوم ١٩٣٥/١١/٢٠، وظل يقاتل إلى أن استشهد هو وأربعة من المجاهدين الثمانية الذين كانوا معه.

وفى العشرين من نيسان/ أبريل عام ١٩٣٦ شبت ثورة فلسطين الكبرى، وامتد لهيبها إلى كل المدن والقرى فى فلسطين، واستطاع المجاهدون أن ينزلوا بالقوات البريطانية خسائر فادحة، وذلك فى معارك اشترك فيها الطيران الإنجليزى وألوف من جنود البر. ومن هذه المعارك معركة «نور شمس» ومعركة «وادى عزون» ومعركة «باب الواد» ومعركة الخضر. وتحت لواء الثورة توحدت كل الفئات والأحزاب الفلسطينية، كما اشترك فيها مجاهدون من مصر والأردن وسورية بقيادة فوزى القاوقجى (١٨٩٠ - ١٩٧٧).

ولو استمرت مسيرة الثورة لتغير وجه التاريخ، وما كان للصهاينة دولة، وما نُكب العرب بالضعف والفرقة والضياع الذى يعيشونه الآن، فقد خدعت القوى الاستعمارية ملوك العرب فأصدروا بيانهم التالى:

«إلى عرب فلسطين: لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة فى فلسطين، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ندعوكم للإخلاد للسكينة حقنا للدماء، معتمدين على نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقوا بأننا سنواصل السعى فى سبيل مساعدتكم».

وإذا كان البيان الماسوني الصهيونى الذى صدر من القاهرة قبل ذلك بأربعة عشر عاماً لم يكن له أثر فى مسيرة الجهاد الفلسطينى، فإن بيان الملوك الذى أذيع فى ١٩٣٦/١٠/١١، وباركته اللجنة العربية العليا كان له من المؤهلات ما يمكنه من خداع الشعب الفلسطينى؛ فلبى نداء ملوك العرب بعد ثورة عاتية استمرت قرابة ستة أشهر. وأثبتت الأيام أن الوعود البريطانية كانت مجرد خداع فى خداع لكسب الوقت، والعمل فى جو هادئ لتمكين الصهاينة من إنشاء دولتهم.

لهب القصيد

وكان لذلك أثر عميق فى نفس الشاعر الفلسطينى عبد الكريم الكرمى (أبو سلمى)، فنظم أقوى قصائده بعنوان «لهب القصيد»، وهى تعد «وثيقة إدانة» صارخة لهؤلاء الملوك، يصمهم فيها بالتفريط فى حق فلسطين والعروبة، وهى مطولة من أربعة وستين بيتاً استهلها بقوله:


انشـرْ على لهبِ القصيدِ
شكوى العبيدِ إلى العبيدِ
شكوى يرددها الزما
نُ غداً إلى أبدِ الأبيدِ
دُكَّتْ عروشٌ زينو
ها بالسلاسلِ والقيودِ
سُحقاً لمنْ لا يعرفو
نَ سوى التعللِ بالوعودِ
وأذلَّهمْ وعدُ اليهو
دِ، ولا أذلّ منَ اليهود

وينعى الشاعر «أبو سلمى» على «إمام اليمن» ما هو فيه من جهالة وتخلف مما انعكس

على شعب اليمن «قاتاً» (مادة مخدرة) وكسلاً وشقاء، فأصبح «اليمن السعيد» اسماً على غير مسمى:

عــــرِّجْ على اليـــــمنِ الســــعــــيـــ
يــــدِ، وليس باليـــمن الســـعـــيــدِ
واذكـــــــر إمـــــــامــــــاً لا يـزا
ل يـعــــــيش فـى دنيـــــا ثـمــــود
وســــــــيــــــوفــــــــه أثـريـة
يـا تَـعْـس هـاتـيـك الـغــــمــــود
تـفـنـي الحــــيـــــاة وقــــومــــه
مـــــا بـين قـــــات أو هـجـــــود(١)

❖❖❖

ويهاجم «فيصل» ملكَ العراق، كما يهاجم فى ضراوة الملك المصرى «فاروق بن فؤاد» الذى كان يتطلع إلى أن يكون خليفة للمسلمين وهو العابث المعبوث به، المتغافل عن الإنجليز «زرق العيون» الذين يحتلون مصر:

خلِّ الخـــــلافــــــةَ والْعَـــــبَــنَّ
عـــلـــى الأرائـــكِ والمـــهــــــودِ
دعْ ســـــبـــحَـــــةَ التــــضـلـيـل واخـ
ـلعْ عـنـك كـــــاذبـةَ الـبــــرود
مـــــا أنـت إلا دمــــــيــــــة
يُـلـهَـى بـهـــــا فـى يـوم عـــــيـــد
والـنـيـل يـبـكـى حــــيــث لا
يـقــــوى عـلـى جـــرِّ الحـــديـد
زرْقُ الـعـــــيـــون حــــيـــــالـه
مـن كـل شـــــيـطـانٍ مـــــريـدِ

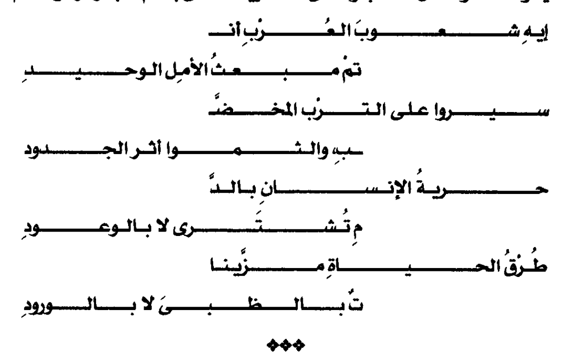
ثم يدعو الملوك إلى تعظيم بطولات الشهداء، والاقتداء بقادة الشعب الفلسطيني في التضحية والفداء من أمثال، عز الدين القسام وفرحان السعدي(٢):

قوموا اسمعوا من كل نا
حية يصيح دمُ الشهيد
قوموا انظروا القسامَ يشـ
رقُ نورُه فوق الصرود (٣)
يوحي إلى الدنيا ومَنْ
فيها بأسرارِ الخلود
قوموا انظروا فرحان فو
ق جبينه أثرُ السجود
يمشي إلى حبل الشها
دة صائماً مشْيَ الأسود

ويدعوهم أن ينظروا إلى المآسي التي نزلت وتنزل بالشعب الفلسطيني. الذي يعيش مضيعاً بالتهديد أو بوعود جوفاء لا يعرف أصحابها الصدق، وتوزّع الفلسطينيين ما بين شهيد وسجين وشريد، وأرملة ويتيم وفقيد:

قوموا انظروا الأهلين بيـ
ـن الوعد ضاعوا والوعيد
ما بين ملقىً في السجو
ن وبين منفيٍّ شريد
أو بين أرملةٍ تولـ
ولُ أو يتيم أو فقيد
قوموا انظروا الوطن الذبيـ
ـحَ من الوريد إلى الوريد
تتزاحم الأجيالُ دا
ميةَ الخطى فوق اللحود(٤)

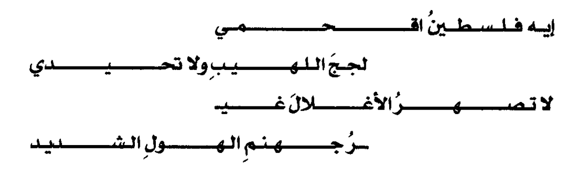
ومع كل هذه النكبات الدامية القاسية لم يتسرب اليأس إلى نفس الشاعر أبى سلمى؛ فاليأس يجافى الإيمان، فلا عجب أن يتوجه بالخطاب إلى شعوب الأمة العربية بنفس تتدفق بالإيمان والثقة والأمل، ويدعوهم إلى ترسم خطى الأجداد فى الإصرار والعمل والتضحية والفداء، وتحمل المتاعب والمشاق؛ فالحرية تتحقق بالدم لا بالوعود والكلام:


إيهِ شـعـوبَ العُـرْبِ أنـ ـتمْ مـبـعثُ الأملِ الوحـيـدِ
سـيـروا على التـرْب المخـضَّـ ـبِ والـثـموا أثـر الجـدود
حـريـةُ الإنـسـانِ بـالـدَّ مِ تُشـتَـرى لا بـالـوعـودِ
طُـرُقُ الحـيـاةِ مـزَّيـنـا تٌ بـالـظـبـىَ لا بـالـورودِ

◆◆◆

ويختم أبو سلمى قصيدته بتوجيه الخطاب إلى أصحاب القضية... شعب فلسطين راسماً طريق الخلاص: إنه منهج القسام.... الجهادُ المرّ العاتى ومواصلة الثورة، وتقديم التضحيات فى سخاء دون كسل أو تقاعد.

ويحشد الشاعر عاطفته المتوهجة فى هذه الخاتمة، بتصوير نابض متوقد، وأداء تعبيرى جزلٍ قوى، طعَّمه الشاعر ببعض الكلمات والعبارات القرآنية التى زادت الأسلوب قوة بجرسها وإيحائها:


إيـه فـلـسـطـينُ اقـحـمـي لجـجَ الـلـهـيـبِ ولا تحـيـدي
لا تـصـهـرُ الأغـلالَ غـيـ ـرُ جـهـنمِ الـهـولِ الـشـديـد

والثـــــــورةُ الحــــــــمـــــــــراءُ نُطــ
ـطعـــمُــهـــا الجــســـومَ مع الكبـــود
أيــان نــســـــــــــــــأل نــارهـــا..
فـــتـــجـــيـــبنا: هـلْ منْ مـــزيدِ؟
ووقــــــــــــــودُهـــا أهــلُ الــكــرا
مـــةِ من جــحـــاجـــحـــة(٥) وصـــيـــد(٦)
يـــا نـــار لا تـــتـــظـــلـــمـــى..
وتقـــبـلـي شـــــرفَ الـوقـــــود

وتبقى القصيدة - كما ألمحت سابقاً - «قرار إدانة» صارخ لمنطق البيانات، والنداءات، والوعود، والمفاوضات في حل مشكلات الشعوب وتحريرها من نير أعدائها اللصوص الغاصبين، وقد أثبت الواقع التاريخي أن الحرية لا تأتى طواعية، أو منحة من الغاصب، ولكنها تؤخذ غلاباً وانتزاعاً، وأن الجهاد الدامى هو أضمن طريق لتحقيق السيادة والنصر.

المفردات:

(١) الهجود: النوم.

(٢) فرحان السعدى: من رجال عز الدين القسام. ألقى الإنجليز القبض عليه، وهويحمل بندقية، فحكم عليه بالإعدام، وأعدم شنقاً فى شهر رمضان، وهو صائم، وعمره سبعون عامًا.

(٣) الصرود: المرتفعات والجبال.

(٤) اللحود: القبور.

(٥) جحاجحة: جمع جحجح: وهو السيد العظيم.

(٦) صيد: جمع أَصْيد: وهو الملك والعظيم، والأسد.

فلسطين فى شعر نجيب الكيلاني

نجيب الكيلانى (١٩٣١ - ١٩٩٥) ولد بقرية «شِرْشَابَة» وهى إحدى قرى محافظة الغربية بمصر، والتحق بكتّاب القرية، وأتم تعليمه بالمرحلة الإلزامية والمرحلة الابتدائية، وحصل على «شهادة التوجيهية» من مدرسة طنطا الثانوية، ثم التحق بكلية الطب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) عام ١٩٥١ استجابة لإصرار والده، مع أن «نجيب» كان يتمنى أن يلتحق بكلية الآداب أو كلية الحقوق.

وفى كلية الطب كان نجيب لساناً من ألسنةِ التيار الإسلامى داعية وخطيباً؛ لذلك اعتقل قبل تخرجه (من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٥٧) كما اعتقل بعد تخرجه (من سنة ١٩٦٥ إلى عام ١٩٦٧)، وكان مثالاً للطبيب المسلم إخلاصاً وصدقاً فى عمله وغيرة عليه، وفى عام ١٩٦٨ هاجر للعمل فى «دبى» إلى أن أحيل إلى التقاعد، وأصيب بعد ذلك بمرض عضال، وأجريت له عدة عمليات إلى أن وافاه الأجل فى مدينة طنطا بمصر فى الخامس من شوال عام ١٤١٥، الموافق للسادس من آذار/ مارس عام ١٩٩٥.

وكان نجيب (رحمه الله) ذا ثقافة واسعة، وعقلية موسوعية يشهد بذلك إنتاجه المتنوع الذى قارب مائة كتاب أو يزيد، منها كتب إسلامية مثل: الطريق إلى اتحاد إسلامى، وأعداء الإسلامية، ومنها كتب فى التنظير للأدب الإسلامى فى القصة والمسرحية، ومنها روايات مثل: الطريق الطويل، والربيع العاصف، والذين يحترقون، ومنها مجموعات قصصية قصيرة مثل: موعدنا غداً، والعالم الضيق، وعند الرحيل، ومنها تراجم غيْرية مثل: إقبال الشاعر الثائر، وشوقى فى ركب الخالدين، ومنها ترجمة ذاتية من خمسة أجزاء بعنوان: لمحات من حياتى، ومنها مسرحية باسم على أسوار دمشق، ومنها كتب علمية ودراسات اجتماعية مثل: الصوم والصحة، والمجتمع المريض.

وصدر لنجيب الكيلانى فى حياته ستة دواوين هى: نحو العلا، وأغانى الغرباء، وعصر

الشهداء، وكيف ألقاك؟، ومدينة الكبائر، ومهاجر، كما أن له ديوانين مخطوطين هما: أغنيات الليل الطويل، ولؤلؤة الخليج، وقد عاش الكيلانى نموذجاً عملياً للأديب الرسالى المسلم الذى يرى الأدب - لا غاية - بل وسيلة لترسيخ القيم الإنسانية العليا، وتهذيب النفوس، وتربية السلوك، وكان يقول صراحة: «إننى أديب داعية يستشعر عظم المسئولية وأهمية نشر الرسالة الخالدة»(١).

وقد أخذ الكيلانى نفسه بهذا الإلتزام فى كل إبداعاته النثرية والشعرية، ونكتفى فى مقامنا هذا بإلقاء إضاءة على شعره فى حدود هذا النطاق، فهو يرفض شعر الكذب والنفاق والنفعية، ويقول:

أريدُ الفنَّ أنْ يُلهب روحَ الغضبةِ الكبرى
يشكّل جيلَنا الحيرانَ، يُذْكى فكرَهُ الحُرا
يطارد خيبةَ الآمال.. والإلحادَ والفقرا
يفيضُ على الربا عدْلاً، ويملأ روضَها برّا
يترجمُ عن هدى الإيمانِ فى أيامنا الحيْرَى(٢)

والشاعر أو الأديب الحق - فى نظر الكيلانى - هو ذلك الذى:

يُشْرق فى فمه الإيمان
يسقِى الظامىءَ فجر حنانْ
يلهب قلبَ اليائس ثورةْ
يطفىءُ لوعةَ روح تحقدْ
يهدم سور السجنِ الأسودْ
يرفعُ أحزانَ الأغلالْ
يحنق أجراس الزيف
يسحق أصنامَ الخوف(٣)

وإيماناً بهذه الرسالة الشعرية - بمفهومها السوىّ الصادق الراقى - نرى الكيلانى يعطى

اهتماماً كبيراً لقضايا العالمين العربى والإسلامى، ومنها قضية فلسطين، وفى الصفحات التالية نلقى إضاءة على هذه القضية ومكانها وأبعادها فى شعر نجيب الكيلانى:

كانت أول قصيدة نشرت لنجيب الكيلانى هى قصيدة «النور بين أيادينا» نشرت فى صحيفة الإخوان (العدد ٢٢٢ لعام ١٩٤٩)، ثم نشرت مرة أخرى فى أول ديوان صدر له وهو «نحو العلا»، وقد صدر هذا الديوان عام ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م وهو طالب فى المرحلة الثانوية، وكانت سنّه أقل من عشرين عاماً آنذاك، والقصيدة مطولة من خمسة وثلاثين بيتاً، نعى فيها على المنظمات الدولية التى تجور على الحق، ويرثى فيها لدويلات صغرى تلتهمها دول كبرى لا تعرف إلا الباطل، وما أشبه الليلة بالبارحة!! ويذكر الشاعر الأمريكان والسوفيت، ويصرخ بلسان الحق:

مالى أرَى دولة الطغيان سائدةً
كلُّ البرايا لها كالرقِّ والحَشَمِ؟!!

فلا عجب أن يدعو الشاعر الشرقَ إلى اليقظة والعودة إلى الدين والتصدى للعدو، وكان لفلسطين نصيب طيب فى هذه القصيدة، فالشاعر يدعو ساسة العرب إلى النهوض والاتحاد والنضال ونسيان الخلافات والأحقاد، حتى ينصرهم الله ويعصمهم من أعدائهم، وعليهم أن يعيدوا للمسجد الأقصى وجوده وكرامته، ويفدوه بكل غالٍ ونفيس، فالحقيقة الناطقة أمامنا هى: «إما أن نكون أوْ لا نكون».. إما النصر وإما العدم.

ياساسة العُرْبِ هُبّوا للنضالِ معا
ثم اتركوا بالىَ الأحقادِ والتهمِ
يكنْ لكم خالقُ الأكوانِ مُعْتَصَما
حمى الرحيم لدينا خيرُ مُعْتَصَمِ
رُدّوا إلى المسجدِ الأقصى كرامتَه
وافدوا بُنوَّتَهُ بالمالِ أو بدمِ
وجنِّدوا الجندَ إنا فوقَ جاريةٍ
إما إلى الفوزِ أوْ إمّا إلى العَدَمِ(٤)

وكان الديوان الثانى لنجيب الكيلانى هو ديوان «أغانى الغرباء» الذى نظم كل قصائده - أو أغلبها - وهو معتقل (١٩٥٥ - ١٩٥٧) وقد استطاع أن يُهرِّب هذا الديوان فى صورته المخطوطة خارج أسوار السجن، وفى هذا الديوان قصيدتان عن فلسطين الأولى - بعنوان: (فلسطين الجريحة)، وهى على لسان «فلسطينى» يتطلع إلى «الثأر»، وتخليص الأرض، والانتقام من الأعداء، أما القدس فيقول عنها بقلب يتفجر بالعزم ويجيش بالأمل:

والقدسُ أُرجعُها إلى الأحرارِ والشعب المجيدْ
وأعيدُها قدسيّةَ الأعطافِ كالماضى السعيدْ
وعلى المآذنِ يهدرُ التكبيرُ فى الفجرِ الوليدْ
وستعلم الأحداثُ كيفَ نقارع الخَطب الشديدْ
يحمِى الإلهُ حشودَنا، وبقلبنا العزمُ الجديدْ(٥)

❖❖❖

أما القصيدة الثانية - وهى بعنوان: (فَتَى اللُّد)(٦) فقد صدّرها الشاعر بمقدمة نثرية يقول فيها: «قابلته فى معسكر اللاجئين قرب «عمان» فى عام ١٩٥٤، فقلت: من أى بلد الفتى؟ قال: من اللدّ. قلت: شهدت مذبحتها الشهيرة؟ هتف - وفى عينيه دموع - «الثأر ... الثأر».

والقصيدة مطولة من أربعة وخمسين بيتاً جاءت فى صورة قصصية حوارية استكملت كل عناصر القصة القصيرة أو الأقصوصة، والحوار فيها شديد الأسْر، قوى الإيحاء. ويتردد فيها - على لسان الفلسطينى فتى اللد - نبرة الاعتزاز بكثير من القيم النفسية والخلقية والمرجعية الدينية، وهى التى تجمعنا على الحق، وترسم طريقنا للخلاص:

أتسألنى أينَ بالأمسِ كنتَ
ومهدى أنا البيدُ أم فى الحَضَرْ؟
بلادى بلادُك لستُ أنا..
ولا أنتَ إلا ضحايا البشَرْ
ويجمعنا فى الوجودِ الخطوبُ
ودينٌ وضىءٌ وفخرٌ غَبَرْ

وأمـــجـــادُ «طـه» وقـــرآنُـهُ

وعـصـرُ الشـجـاعِ الطهـورِ «عُـمَـرْ»

وذكـــرى صـــلاحٍ وإقـــدامُـــه

وصـولـتُـــهُ حـــيـن خـاضَ الـوَضَـرْ

أتـســـألـنـى أيـن بـالأمـس كـنـت

ومـهـدى أنا الـبـيـدُ أمْ فى الحـضَـرْ؟

سـل «الـلـدَّ» عـنـى وعـن خـــالـديـنَ

طـواهـم ثـراهـا بـيـوم أغَـرْ

فـإنا نـبـاهـى بـيـوم الـفـدا..

وأيـامُـنـا الحـمْـرُ هُنَّ الـظَّفَـرْ

وتحل نكبـة «حزيران» عام ١٩٦٧، وتسقط الراية الكريمة تحت الأقدام الملعونة السوداء، وتسيل الدماء البريئة، وتنهب الأرض المقدسة، ويهتك عرض الشرف اليعربى الكريم. وبوجدان ممزق نازف محروق يكتب نجيب الكيلانى(٧):

فـى حـــزيـرانَ آذنـتْـنـا خـطـوبٌ

كـاسـحـاتٌ وضـيـعـةٌ ورعـودُ

أغـرقـتْـنـا هـواجسٌ وخـطـايـا

وغـرورٌ مـسـتـحـكِمٌ وشـرودُ

فـإذا الأفْـقُ جـمـرةٌ تـتـلـظى

وإذا الأرضُ بـالـشـقـاءِ تمـيـدُ

مـشـهـدٌ صـاخبٌ ودنـيـا هَوانٍ

وانحـسـارٌ على المدى مـشـهـودُ

ويستعرض الشاعر عربدة الصهاينة فى هذه الأيام المنكودة وكيف استهانوا بالمقدسات الإسلامية، حتى دخلت عاهراتهم المسجد الأقصى كاسيات عاريات وقد علت أصواتهن بهتافات قذرة وأناشيد بهجة وسرور:

بنتُ صهيونَ فى المساجدِ تلهو

قد تعرتْ أفخاذُها والنهودُ

عانقتْ حلمها، وصارت تغنَّى ..

قد حلا اللحنُ والهوى والنشيدُ

بنتُ صهيونَ فى المدائنِ تجرى

و«يهوذا» على القبابِ يَشيدُ

وعلى «القدس» مسحةٌ من ضياعٍ

وبكى يومَها الترابُ الشهيدُ

◆◆◆

ولأن الأحزان المستعرة - بسبب هذه النكبة - كانت تستبد بنفس الشاعر، وظلت تنشب مخالبها فى أعماقه لآماد طويلة نراه يلح على هذه المعانى على نحو أوفى، وأكثر تفصيلا(٨):

أحزانٌ فى دنيا الإسلامْ
سقطتْ كلُّ الأعلامْ
ماتت فوق القيثارِ الأنغامْ
وتنوح قبابٌ ومآذنْ
ينهمر دموعاً قلبُ المسلمْ
أشواقُ الروح قد اعتُصِرَتْ
بأيادِ حمرٍ همجية
سقطت عذراءُ التاريخِ الأعظمْ
فى قبضة مومسْ
مقبرة صلاح الدينْ
ينبشها ذئبٌ أجربْ
وشواهدُ أيامِ الحرية
داستها قدم غجرية

والصـــخـــرةُ فى قلبِ المســـجـــد
يتـــسلقـــهـــا بغـــايا

◆◆◆

ولكن الكيلانى الذى استبدت به هذه الأحزان السوداء لم يفقد حسه الإيمانى ووعيه الناقد، فقرر بحق أن ضياع القدس والأرض العربية كان «بيدنا لابيد عمرو»، فقد واجه الصهاينة شعوباً طحنها الظلم، وقادها طغاتها إلى «مستنقع القيم والأخلاقيات المختلة»

فـــالكلمـــةُ فى قـــيـــدِ قـــاهرْ
لا تعـــرف طعمَ الحـــرية
والـنـقـــدُ جـــريمـة
وصـــلاةُ المؤمنِ رجـــعـــيـــة
والـديـنُ خـــرافـــة
مـــاتتْ أصـــداءُ الإيمـانْ
فـــى حـــلـــقِ المـــذيـــاعْ
وعـلـى وجـــه الـتـلـفـــازْ
وعلى صـــدرِ الصـحفِ العـربيـدة
فلمـاذا لا تسـقطُ أمـجـادُ الحـرية؟
ولماذا لا يـلـحـــقـنـا عـــارْ؟
ولماذا لا تسـقط فى أيدى الفـجـارْ
مـــدينـتُـنا الشـــمّـــاء؟
ولمـــاذا لا يـــطـــربُ «ديّـــان»
ويـدوس بأقـــدام قـــذرة
قـــدسَ الأقـــداسْ؟؟
لمْ ينتـــصـــر الزحفُ الأســـود
بـل هـزمَـتْ أفـــراحُ الحـق

فـى قـلـب الإنـســـــــان المسـلـم
وانـدثـرت آمـــــــالُ الأحـــــــرار
خـــلـــف الأســـــــــــــوار
تحت ســــــيـــــاطٍ لا تـرحـمْ
فى مـــــدرســـــةِ الذلُ الـقـــــاهـرْ

❖❖❖

نعم .. لقد تحققت - أو حققنا «هزيمتنا الذاتية» أو «هزيمتنا الداخلية» بظلم طغاتنا، واستسلام شعوبنا لهذا الظلم إلى درجة «توثين الظالم» والتعبد له، ومن ثم جاء انتصار أعدائنا علينا من قبيل «تحصيل الحاصل» وهى المشكلة الكأداء التى تأخذ بخناق دول الرق والعالم الثالث. على حد قول الكيلانى:(٩)

آفـــةُ الشـــرق حـــاكم مــــعـــبـــودُ
وشـــعـــوب تَـرُوعُـــهُـنَّ قـــيـــودُ
أمـــــةٌ تمـلـكُ الـكـثـــيـــــرَ ولـكـنْ
هـدَّها الجـــهـلُ والأسَى والجـــمـــودُ
وتـطـيـلُ الـســـجـــــودَ فـى كـلِّ حـينٍ
ولـغـــيـــرِ الإلـه ذاك الســـجـــودُ
نـال إقــــــدامَــــهــــا هـوانٌ وذلٌّ
وتـغـنَّـى بـالموبـقـــاتِ الـقـــصـــيـــد

❖❖❖

ومع ذلك لا يعرف اليأس طريقه إلى قلب الشاعر؛ فاليأس والإيمان لايجتمعان فى قلب مسلم، ويرسم الشاعر لقومه طريق النصر، وأهم آليات تحقيقه: هيمنة روح العدل والحرية، والحب، والإيمان، والتخلص من عقدة الخوف:

إنْ يـخـــرجْ يوسفُ مـنْ جُـــبِّـــه
تـتـــســـاقطْ أســـتـــارُ الظّلْمَـــهْ

يشـــــرق فــــجــــرُ الحـــــريـةْ
يـــأتِ الــــنـــصــــــــــــــرْ
تنـدحـــر الأولويـة الهــــمـجـــيـــــة
....
يـــاجـــــــيــلَ الأحـــــــــــزانْ
حــطـمْ أســـــــوارَ الخــــــوف
انــزعْ ســــــــوطَ الجــــــــلادْ
وامـضِ إلى الـدربِ الأخــــضـــــرْ
وتـســــلــحْ بـــالحــبّ وبـــالإيمـــانْ(١٠)

***

وهذه القطوف التى قـدمناها من دواوين نجـيب الكيـلانى تقـودنا إلى عـدد من الاستخلاصات أهمها:

(١) أن نجيب الكيلانى انشغل وجدانه وفكره بقضية فلسطين فى سنّ باكرة، وهو طالب فى المرحلة الثانوية، فكان لفلسطين مكانها فى أول قصيدة نشرت له، وهى قصيدة «النور بين أيادينا». وكان لتوجهه الإسلامى التنظيمى فى هذه السن أثر كبير فى انشغاله بهذه القضية بخاصة، وبهموم العرب والمسلمين بعامّة.

(٢) أنه عالج هذه القضية - فى شعره - بحسٍّ إيمانى قوى، وعاطفة حارة صادقة كانت مزيجاً من الحزن العميق بسبب النكبة التى نزلت بفلسطين، وحرارة العزم والتصميم على تحرير الأرض والمقدسات، وكانت هذه العاطفة الصادقة تنهل من حسٍّ إيمانى صادق شريف.

(٣) أنه نظر إلى قضية فلسطين على أنها جزء من الواقع العربى والإسلامى متأثرة به، ومؤثرة فيه، ومن ثم جاء ضياع فلسطين ومقدساتها بسبب تفريط العرب والمسلمين، وابتعادهم عن دينهم حيث منابع القوة والنور والخلق البانى القويم.

(٤) أنه - على حزنه الشديد لما نزل بفلسطين والعرب - لم يفقد وقاره العقلى، ووعيه

النافذ، فرسم طريق الخلاص والتحرير والنصر، وكل أولئك - كما يرى - لن يتحقق إلا إذا كانت نقطة البداية من الداخل... من الذات بأن ننتصر أولاً على أنفسنا، ونحررها من عقد الخوف والضعة والاستسلام والهوان.

رحم الله نجيب الكيلاني

المراجـــــع:

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتب الكيلانى: أعداء الإسلامية ٧ - ١٨. حول القصة الإسلامية ١٩، ٢٢، ٢٣. حول المسرح الإسلامى ١٥ -٢٠، ٦٣ - ٦٤. الإسلامية والمذاهب الأدبية ١١١. وانظر كذلك: حوار مع نجيب الكيلاني ٥٤ (أعدته زوجته: مخطوط). شعر نجيب الكيلانى بين مقتضيات الرسالة وآفاق التطور: ص٤. د. جابر قميحة بحث مقدم لمؤتمر الأدب الإسلامى القاهرة ٢٤ - ٢٦ حزيران/ يونيو عام ١٩٩٩).

(٢) الكيلانى: ديوان: عصر الشهداء: ١٦ (مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م).

(٣) الكيلانى: السابق ٥٣ - ٥٤.

(٤) الكيلانى: ديوان: نحو العلا ٥٥ - ٥٦ (المطبعة اليوسفية بطنطا - مصر. الطبعة الأولى ١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠م).

(٥) الكيلاني: ديوان أغانى الغرباء ٤٦ (مؤسسة الرسالة - بيروت ط(١) عام ١٩٧٢.

(٦) الكيلانى: السابق ٦٢ - ٦٥. والوضر: الوسخ والقذر ويقصد الشاعر كل صعب معوق.

(٧) من قصيدة «بنت صهيونى فى المدائن تجرى». ديوان عصر الشهداء ٩٦ - ٩٩.

(٨) من قصيدة (القدس). ديوان: عصر الشهداء: ٧٠ - ٨٢.

(٩) مطلع قصيدة «بنت صهيون فى المدائن تجرى» عصر الشهداء: ٩٦.

(١٠) من قصيدة «القدس» ديوان عصر الشهداء: ٧٩، ٨٢ .

بصمات القرآن والتراث
فى شعر إبراهيم طوقان

إبراهيم طوقان (١٩٠٥ - ١٩٤١) شاعر فلسطين الشهير ولد فى نابلس بفلسطين، وتلقى تعليمه الثانوى فى القدس، ثم التحق بالجامعة الأمريكية فى بيروت، وتخرج فيها، وبعد تخرجه اشتغل مدة بالتدريس، قبل أن يسند إليه الإشراف على القسم العربى فى إذاعة القدس..

عاش شبابه نهبًا لأمراض كانت تعاوده إلى أن توفى وهو فى سن السابعة والثلاثين، ويصدق عليه ما قاله شوقى فى رثاء الزعيم المصرى الشاب مصطفى كامل:

قـــد ضـــاق جـــســـمُك عنْ مَـــداكَ، فلمْ يُطقْ
صـــــبـــــرًا عـليك، وأنتَ شُـــــعلـةُ نـارِ

◆ ◆ ◆

وفى السطور التالية نحاول - بقدر ما نستطيع فى حدود هذه الصفحات القلائل - أن نبرز للقارئ ملمحًا من أهم الملامح الأسلوبية فى شعر إبراهيم طوقان بعامَّة، وشعره الذى يعالج قضية فلسطين وواقعها فى آلامها وآمالها بخاصة، وهذا الملمح هو تأثره بالمعطيات الأسلوبية القرآنية والدينية والتراثية.

كانت فلسطين وطنًا وشعبًا وكفاحًا ومعاناة هى الموضوع الغالب على موضوعات شعر إبراهيم طوقان، وكان شعره الوطنى - كما تقول شقيقته فدوى فى تقديمها لديوانه - يحمل طابعًا فلسطينيًا خاصًا كان حتمًا أن تطبعه به أحوال بلاده المضطربة فى هذا العهد المظلم من عهود فلسطين.

وما كان إبراهيم ليفوز بلقب شاعر الوطن، وشاعر فلسطين لو لم يسجل قضية بلاده فى

شعره القومى الذى يمتاز بذلك الطابع الفلسطينى الخاص..

ولو لم تنعكس فى ذلك الشعر أصدق صورة لهذا الوطن فى ذلك العهد، فكان شعره بحق سجلاً تاريخيًا للأحداث، وتعبيرًا صادقًا عن الشعب وإرادته، وتمجيدًا لبطولته، وبذله وفدائه.

بصمات القرآن الكريم

نشأ إبراهيم فى بيئة دينية محافظة، ونهل فى صباه من مناهل الأدب العربى الأصيل، وبيان القرآن الكريم والبلاغة النبوية، والتراث العربى، فكان من أكبر الأسباب التى أعانت إبراهيم طوقان على أن يقول الشعر فيجيده بالقياس إلى صغر سنه هو كثرة حفظه للشعر المنتخب، واحتفاله الكبير بالقرآن الكريم، فقد كان كثير التلاوة له، عميق النظر فيه، وذلك يرجع بدواعيه وأسبابه إلى بيئة فى البيت يُعْنى أصحابها بتنشئة أطفالهم على تلاوته، والتشبع بروحه.

وكان إبراهيم من صغره يقرأ القرآن، ويطيل التأمل فيه، حتى أصبح ذلك جزءًا أصيلاً فى طبيعته لا يعوقه عائق، ولا يصرفه عنه تقلبه فى مختلف معاهد العلم الأجنبية فيما بعد، وتقول شقيقته: إن تلاوته للقرآن الكريم لم تكن تلاوة سطحية عابرة، بل كان يتجه إليه بقلبه وروحه، ويحس له فى نفسه وقعًا عجيبًا، وأثرًا بعيدًا، فيهزه إعجازه هذا، وتفعل فيه بلاغته فعل السحر، ويستولى عليه خشوع عميق يصرفه عن كل ما يحيط به.

وحينما عمل مراقبًا للقسم العربى بإذاعة القدس سنة ١٩٣٦، وعلى مدى أربع سنوات كانت كل أحاديثه تعتمد على محاور ثلاثة: الآية القرآنية، والحديث الشريف، والمثل المشهور، وكان من الطبيعى، وقد نشأ إبراهيم هذه النشأة، وعاش بمثل هذا الحب للقرآن الكريم، والعكوف عليه - أن نسمع وجيب القرآن، ونشهد بصمات أسلوبه العظيم وتراكيبه وتشبيهاته وصوره فى كثير من قصائده، ونسوق فيما يأتى بعضًا من هذه الشواهد: فمن الصور القرآنية الرائعة التى صورت جمود الكفار، وتبلد شعورهم، وصدهم عن الاستجابة للحق قوله تعالى: ﴿... ثم قستْ قلوبُكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوة وإنّ من الحجارة لَمَا يتفجَّر

منه الأنهار وإن منها لَمَا يَشَّقَّقُ فيخْرجُ منه الماء وإنَّ منها لَمَا يهبط من خشية الله﴾ (البقرة: ٧٤).

ونرى بصمات هذه الصورة الأخَّاذة فى قول إبراهيم طوقان، مصورًا قساوة المستعمر، وظلمه الغاشم:

أنَّى لشـــاكٍ صـــوتُـه أنْ يُسْـــمـــعـــا
أنَّى لبـــاكٍ دمـــعُـــهُ أن يَـنْفَـــعـــا
صـــخْـــرٌ أحسَّ رجـــاءَنا فـــتـــصـــدَّعـــا
وأتى الـرجـــاءُ قـلوبَـهم فـــتَـــقَـطَّعـــا
لا تَعــجـــبـــوا فَـــمِنَ الصـــخـــورِ نبعٌ يفـــورْ
ولهـم قلوبٌ كـــالقـــبـــورِ بلا شـــعـــورْ

❖ ❖ ❖

وهؤلاء الذين لا يحسون بما يعانيه وطنهم من مواجع وآلام، بل كل همهم الحرص على دنياهم والمظهر الكاذب.. هؤلاء يراهم إبراهيم غير جديرين بشرف الرجولة بعد أن ماتت قلوبهم ومشاعرهم، فهم:

حُسبوا فى الرجالِ، هل كانت الأنْعامُ إلا لمثْلِهمْ أشباها

وهو تشبيه ورد كثيرًا في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿... أولئك كالأنعامِ بلْ همْ أضلّ أولئك هم الغافلون﴾ (الأعراف: ١٧٩) وقوله تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إنْ هُمْ إلا كالأنعام بل أضلّ سبيلاً﴾ (الفرقان: ٤٤)، وقوله تعالى: ﴿... والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنارُ مثوى لهم﴾ (محمد: ١٢).

❖ ❖ ❖

وكثيرًا ما يُطعِّم الشاعر شعره بكلمات قرآنية، جاءت فى مكانها المناسب دون تكلف وافتعال، وقد منح هذا الاستعمالُ شعره مزيداً من الجمال، وقوة الإيحاء والتأثير، لما للكلمات القرآنية من تأثيرها الخاص على مشاعر المتلقى، ومن أمثلة ذلك ما نراه فى الأبيات الآتية:

- اليوم يشرب موطني
كأس الهناءِ لكمْ دهاقا(١)

- بالعاديات لديه ضَبْحا
والأسنةُ في اللَّبانْ(٢)

- وثمَّ وحشٌ فمُهُ دامي الزَّبد
في جيدِه حبلٌ غليظٌ مِنْ مَسَد

ويسهل على القارئ التعرف على الكلمات القرآنية فى الأبيات السابقة، وهى من قصائد مختلفة، وقد جاءت فى الآيات الآتية:

- .. وكأسًا دهاقًا (النبأ: ٣٤).
- والعاديات ضبحًا (العاديات: ١).
- فى جيدها حبل من مسد (المسد: ٥).

◆ ◆ ◆

وأوضح من ذلك وأدلّ ما نراه من هيمنة سورة كاملة هى سورة الرحمن، على قصيدة طويلة كاملة تزيد على الأربعين بيتًا هى قصيدة «حطين»؛ فعبق السورة يسرى فى أعطاف القصيدة كلها: فقافيتها هى النون، وهو الحرف الذى تنتهى إليه الفواصل فى السورة، وآيات السورة قصيرة: منها ما جاء فى كلمة واحدة مثل: (الرحمن: ١) - مدْهامتان (آية: ٦٤)، ومنها ما جاء فى كلمتين (الآيات ٢ - ٤)، وأغلب الآيات جاء فى كلمات ثلاث وأربع.

واختار الشاعر لقصيدته بحرًا مجزوءًا هو مجزوء الكامل، وكلمات ذات جرس متنوع يتسق مع الجو المنشود، وتتدفق الكلمات والعبارات القرآنية فى القصيدة مما يدل على تمكن الشاعر من لغته ومحفوظه القرآنى، ونقتطف من القصيدة بعض الأبيات الدالة على هذا التأثر، وهيمنة السورة على القصيدة بجوها وجرسها وألفاظها:

يا باكيَ الفيحاءِ حيـ
ـنَ أبتْ تقيمُ على الهوانْ(٣)

أيامَ كانتْ وردةً
بدمِ البواسل كالدهان(٤)
البيتُ مما قلتَه
فيه تَخايلُ جنتان
أبداً رثاؤُك فيهما
عينان دمعا.. تجريان
هذا وإنَّ جَناهُما
للصَّعْبُ فاعجبْ وهُوَ دان
تَرْمى بمارجها وَمَا
غيرُ العجاجةِ من دخان(٥)
وسيوفُهم ماء الحميـ
ـم على مضاربهن آن(٦)

وقارئ الأبيات يكتشف بسهولة ما فيها من كلمات قرآنية جاءت فى سورة الرحمن، كما نرى فى الآيات الآتية:

- ﴿فإذا انشقت السماء فكانت وردةً كالدهان﴾ (الآية: ٣٧).
- ﴿ولمن خافَ مقام ربِّه جنتان﴾ (الآية: ٤٦).
- ﴿فيهما عينان تجريان﴾ (الآية: ٥٠).
- ﴿... وجَنَى الجنتين دان﴾ (الآية: ٥٤).
- ﴿وخَلَق الجانَّ من مارج من نار﴾ (الآية: ١٥).
- ﴿يطوفون بينها وبين حميم آن﴾ (الآية: ٤٤).

وهيمنة السورة بروحها وجرسها على القصيدة تنم - كما تقول فدوى طوقان - على أن معرفة إبراهيم طوقان كانت معرفة تعمق ومعايشة، وأن تلاوته له لم تكن تلاوة سطحية عابرة، بل كان يتجه إليه بقلبه وروحه».

◆ ◆ ◆

وبصمات السنّة والتراث:

وللأثر النبوى الشريف كذلك بصمات على شعره، ونكتفى هنا بمثال واحد، يقول إبراهيم طوقان مخاطبًا أحمد شوقى:

جبريلُ ينفخُ فى فؤا — دِك ما يَفيضُ على اللسانْ

وأمدّ بالنفحات رو — حَك حينَ طوّف بالجنان

فهو فى هذين البيتين يشير إلى ما جاء فى الأثر من اختيار النبى (صلى الله عليه وسلم) لحسان بن ثابت لكى يكون الشاعر الذى يذب عن الإسلام بلسانه، ويهجو الكفار، ويبرز مثالبهم ونقائصهم قائلاً له: «أجبْ عنى، اللهم أيّده بروح القُدس».

❖ ❖ ❖

وفى تضاعيف شعر إبراهيم غير قليل من الطوابع والقيم والعبارات الدينية، كما نرى فى أبياته التالية:

لا ترْجُ عــفْــواً مـن ســواهُ .. هـو الإلـهْ

وهْـوَ الـذى مـلـكـتْ يـداهُ كـلَّ .. جــاه

جــبــروتـه فــوق الـذيـن يـغُــرهـمْ

جــبــروتُـهـم فـى بَـرِّهـم والأبـحـــرِ

وأخيراً نرى فى شعر إبراهيم طوقان آثاراً من مقروءاته فى الأدب العربى القديم لفحول الشعراء، فقوله:

بالعاديات لديه ضَبْـ — ـحًا والأسنّةُ فى اللَّبان

زيادة على ما فيه من أثر قرآنى يذكرنا بقول عنترة بن شداد فى معلقته:

يـدعــون عنتــرَ والرمــاحُ كــأنّهــا

أشـطـانُ بـئــرٍ فـى لَبــانِ الأدهَـمِ(٧)

ويقول إبراهيم طوقان:

أيــا وادىَ الــرمّــانِ لا طــبــتَ واديًــا

إذا هـى لـم تَـنْـعَـم بـظـلِّـك سَــرْمَــدا

ويـا واديَ الـرمـــــــان لا ســـــــاغَ طـعـــــمُــــــه

إذا أنـــا لــم أمـــــــــــدُدْ لــذاك الجَــنَــى يــدا

والمضمون الفكرى للبيتين يشدنا إلى قول أبى فراس الحمدانى:

مُـــــــــــعَــلِّـلـتــى بــالـوَصْـلِ والمـوتُ دونَــهُ

إذا مــتُّ ظـمــــــــآنـا فـــــــــلا نَـزَلَ الـقَـطْـرُ

دفاعًا عن لغة القرآن

وما دمنا نتحدث عن الآثار والبصمات القرآنية والإسلامية فى شعر إبراهيم طوقان نرى لزامًا علينا أن نبرز بعض مواقفه فى الدفاع عن لغة القرآن، والحفاظ عليها فى مواجهة من يحاولون هدمها، والإساءة إليها، وفى حياته صفحة مجيدة فى هذا المجال، فقد عمل بإذاعة القدس عندما تأسست سنة ١٩٣٦، ووقع الاختيار عليه ليكون مراقبًا للقسم العربى فيها، فاحتضن هذا القسم، وتعهده بعنايته مدة أربع سنوات.

ولعل من أهم ما قام به هناك تصديه لفئة غير عربية كانت تسعى سعيها لتنشيط اللغة العامية، وجعلها اللغة الغالبة على الأحاديث العربية المذاعة، وكانت حجة هؤلاء فى ذلك أن الإذاعة لا يمكنها أن تحقق الغرض الذى هدفت إليه - وهو نفع الطبقة المتوسطة - إذا جرت على استعمال اللغة الفصحى؛ لأن هذه الطبقة من أهل المدن والفلاحين لا تحسن اللغة الفصحى، ولا تفهم اللغة العربية القديمة التى جرى عليها المذياع.

تصدّى إبراهيم طوقان لهذه الدعوة بوقفة حازمة، ونقضها بحجج دامغة، وأظهرهم على أن المذياع لم يستخدم اللغة العربية القديمة، وإنما هى لغة عربية سهلة صحيحة يفهمها المتعلم والأمى على السواء، وأن الفلاحين العوام تقرأ عليهم الصحيفة فيناقشون القارئ فى افتتاحيتها، ولا يعقل أن يناقش المرء فى شىء لم يفهمه.

ويضيف إبراهيم حجة أخرى وهى: أن العرب - مسلمين ومسيحيين - يلتقون على القومية والاعتزاز بالعروبة، ومشروع دعاة العامية غايته القضاء على اللغة العربية، وهى عندنا كل ما بقى من ذلك التراث الطويل العريض الذى اجتمع لنا من الفتوحات

والحضارات والعلوم والآداب والفنون، وما من عاقل يعرف قدر نفسه، ويعتز بعربيته يرضى عن العبث بهذا التراث الباقى، والقضاء عليه بيده.

وكان إبراهيم طوقان يتقن الإنجليزية، ويتعمق الأدب الإنجليزى تعمقًا قويًا، وكان له اطلاع واسع على آثار أصحاب المذهب الرومانسى من أمثال كولريدج، وكيتس، وشللى، وبيرون، كذلك كان له إلمام يسير بالفرنسية من تعلمه فى الجامعة الأمريكية، وكان يعرف شيئًا يسيرًا من اللغة التركية، كما أنه حرص مدة على تعلم اللغة الألمانية، وتعلم بضع دروس من اللغة الأسبانية.

ولكن هذه الثقافة الغربية الواسعة التى اتسعت لها عقلية هذا الشاعر الطُّلَعَة الشغوف بالمعرفة، لم تَجُرْ على اعتزازه باللغة العربية لغة القرآن، والاعتزاز بالتراث العربى والإسلامى. يرحمه الله.

الهــــــــوامش

(١) دهاقًا: مملوءة.

(٢) اللبان: الصدر.

(٣) الفيحاء: دمشق، وإبراهيم طوقان يخاطب بهذه الأبيات الشاعر أحمد شوقى مشيرًا إلى القصيدة القافية التى نظمها شوقى سنة ١٩٢٦ يبكى فيها دمشق بعد أن دكها المستعمرون الفرنسيون بمدافعهم، ومطلع القصيدة:

سـلامٌ مـن صَـبـا بـردَى أرقّ
ودمـع لا يـكـفـكـف يـا دمـشـقُ

(٤) وردة: حمراء. الدِّهان: الأديم الأحمر.

(٥) العجاجة: الغبار.

(٦) حميم آن: ماء حار شديد الحرارة جداً.

(٧) الأشطان: جمع شَطَن: وهو الحبل الذى يدلى فى البئر لاستخراج الماء. والأدهم: حصان عنترة.

أهم المراجــــــع :

١ - ديوان إبراهيم طوقان.

٢ - أخى إبراهيم: فدوى طوقان.

٣ - شاعران معاصران: عمر فروخ.

٤ - الكلمة المقاتلة فى فلسطين: هارون هاشم رشيد.

٥ - الشوقيات: أحمد شوقى.

٦ - صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة.

٧ - شرح المعلقات السبع: الزوزنى.

٨ - ديوان أبى فراس الحمدانى.

من الملامح الإسلامية في شعر الشاعر الفلسطيني الشهيد عبد الرحيم محمود

عبد الرحيم محمود (١٩١٣ - ١٩٤٨) هو ابن فلسطين وشاعر المقاومة والجهاد فى مواجهة الاحتلال الإنجليزى، والبغاة الصهاينة، وكانت عدته فى المواجهة: السلاح والكلمة الشاعرة، فكان جهاده تطبيقاً عملياً لكلماته، وكانت كلماته تعبيراً صادقاً عن عقيدته ونهجه الجهادى الصادق.

ولم يكتف بالجهاد فى فلسطين، فتسلل إلى العراق، واشترك فى ثورة رشيد عالى الكيلانى ضد الإنجليز، ثم عاد إلى فلسطين لمواصلة الجهاد، إلى أن لقى ربه شهيداً فى ١٣ من تموز/ يوليو سنة ١٩٤٨ فى معركة الشجرة بين العرب والصهاينة.

عاش الشاعر مؤمناً بالله والوطن والقيم الإنسانية، ولا عجب فى ذلك؛ فقد نشأ فى بيت علم ودين وتقوى، وعايش قائدين مسلمين متدينين تقيين، هما: عز الدين القسام، وعبد الرحيم الحاج محمد، وسار على دربهما إلى أن لقى ربه شهيداً.

وفى أغلب شعر عبد الرحيم محمود نرى للإسلام والقرآن الكريم بصمات واضحة، فكرية وتصويرية وأسلوبية، ولكننا نكتفى فى هذا المقال الموجز بالتعرف على الموضوعات والقيم الدينية التى عالجها الشاعر، ومنهجه فى ذلك.

◆◆◆

بين أيدينا للشاعر أربع قصائد طوال: اثنتان منها فى «القرآن الكريم»، وقصيدة فى «المولد النبوى»، والرابعة فى «ذكرى الهجرة النبوية»، وكل قصيدة من هذه القصائد الأربع عامرة باعتزاز الشاعر بالدين القيم، ونبيه العظيم، وكتابه الكريم، ذلك الكتاب الذى أخرج

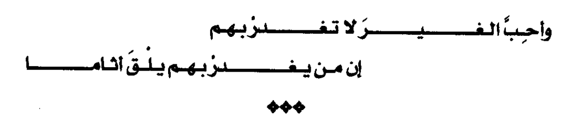
الناس من الظلمات إلى النور، وطهر القلوب من الأحقاد والبغضاء والإحن، وأقام العلاقة بين الناس على الأخوة والحب والنقاء:

وألقى السلامَ على العالمينَ
فذاقوا حلاوة طعمَ السَّلَمْ
أناغيمُ لما شداها الشُّداةُ
أصاخ الزمانُ لحسْن النغمْ
وصحَّى النيامَ.. نيامَ القلوبِ
فقام الأذانُ وخرَّ الصنمْ
أقالَ عِثارَ الخصالِ الملاحِ
ورسَّخ للمكرماتِ القِدَمْ(١)
وقلَّم أظفار شُرس الذئابِ
فلم تخشَ بطشَ الذئابِ الغنمْ(٢)
وقاد الرعاةَ رعاةَ الشياهِ
فصار الرعاةُ.. رعاةَ الأمم

◆◆◆

ويلح الشاعر على قيم ثلاث استطاع الإسلام أن يجعل منها ركائز لمجتمع إنسانى ركين، وهى: العدل والوسطية والحب. وهى ركائز قوية ما كان المجتمع الإسلامى ليقوم وينتصر بدونها، لقد جاء النبى الأمى محمد ابن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) فغزا القلوب بنور القرآن الكريم:

وأشاع العدلَ فى الأرض فلا
ذئبٌ ترقب للشاءِ اخْتراما(٣)
قال: يا إنسانُ، لا تزهدْ وكنْ
بين أخراكَ ودنياك قواما



◆◆◆

ويرسم الشاعر صورة زاهية للرعيل الأول من المسلمين الذين استجابوا لله وللرسول، فمضوا أنجمًا زواهر يُهتدى بها، فهم:

نصروا اللهَ فلم يخذلْهُمو
بل جزاهمْ ربُّهم فوزًا ونُصْرَةْ

فمشَوا فى الناس نورًا وهدى
وبنَوْا فوق جبين الدهر غُرَّةْ(٤)

ركزُوا أرماحَهم فوق العلا
وحَدا الحادى بهم عِزا وشُهرة

◆◆◆

وفى شعر المناسبات الدينية لا يقف عبد الرحيم محمود عند الوقائع والأحداث، ولكنه يهتم اهتمامًا خاصًا بالدروس والعبر المستقاة من هذه الأحداث الجليلة. فمن هذه الدروس التى استخلصها الشاعر من الهجرة أن الباطل مخذول أمام الحق إذا كانت هناك قوة تحصنه، ومنها أن الفعل أجدى من القول، وأن الدعوات تنتصر بالأعمال لا الأقوال، ومنها أن الدعوات تقوم على التضحية بالنفس والأهل والمال، وهذا هو سر خلودها، ومنها أن من مقتضيات التوكل على الله أن يكون المؤمن شجاعًا لا يخشى الناس.

والشاعر لا يكتفى بمعايشة هذا الماضى المجيد بما فيه من أمجاد ولآلئ ودروس وعبر، بل إنه يحرص كل الحرص على أن يربط بين الماضى والحاضر برباط وثيق، والحاضر يفرض عليه بصماته، وهذا الحاضر هو حاضر الأمة العربية والإسلامية، والشعب الفلسطينى، وقد ظهرت معالم هذا الحاضر فى مظهرين:

المظهر الأول: يبدو حين نرى الشاعر ينعى على أبناء الجيل الحاضر تفريطهم فى التركة

العظمى التى خلفها الأجداد، حتى أصبحوا طعامًا سائغًا للأمم الأخرى، يقول الشاعر بعد أن يرسم صورة زاهية لأجدادنا بما فيها من قوة وعز وأنفة وعلم وانتصار:

وجـــاءَ وراءهـمْ نـسْلٌ أضـاعُـوا
جَنَـى أتعـابِهم فـلبـئسَ نَسْلُ
تـنـافـرت الـقـلـوبُ فـلا ودادٌ
وفـرق شـملهم خـوفٌ فَـذلُّوا
وهـانُـوا لا يـعِـزُّ لَـهـمْ قـنـاةٌ
على الأعـداء فـانكسـروا وغُلُّوا(٥)
ونامُـوا لا تُفِـيـقُـهـمـو خطوبٌ
ولا أبـنـاءُ جِـلادٍ يَـشُـلّ
يدوس حـرامَـهـم طيـرٌ بُغـاثٌ
ويقـهـرهم مـن الأقـوام سُـفْل(٦)
عـجـبتُ لمعـشـر فـيـهم كـتـابٌ
بـه طرق الـهـداية كـيف ضلّوا!!
تبـاعُ بلادُهمْ وهـمـو عليـهـا
وأيـديـهـم بـهـا شـحٌ.. وبـخـلُ
أعـدَّ لهم أعـاديهم سـلاحًـا
وعُـدّتهم لهـا خُـطَـبٌ وقـولُ

ويلح الشاعر على الفكرة ذاتها فى قصيدة أخرى، فيرسم صورة مشابهة مطلعها:

واتـيْـنـا نحـنُ مِـنْ بعـدِهـمـو
واضـعْنا مـا جَنَوا طيـشًـا وغُـرّة(٧)

❖❖❖

وحتى تبدو المفارقة هائلة، والبون شاسعًا بين جيل الأجداد وجيل الضعف والضياع والأسلاب.. يجمع الشاعر بين الصورتين المتقابلتين، فبضدها تتميز الأشياء، فبعد أن تنكرنا لديننا وهجرنا كتاب الله فقدنا رجاءنا وطريقنا:

وخـــارتْ عـــزائمنا بعـــدَهُ
وصـــرنا ســـلابَ الوغى نُقْـــتَسَمْ(٨)
وكـــانت لنا عـــزة المؤمنين
فـــصرنا العـــبيدَ وصـــرنا الخـدمْ
فـــتُلْطَمُ منا عِـــزازُ الخـــدودِ
ونــدعُـــو بخـــيـــرِ لمنْ قـــد لَطَمْ
وكنا الرغـــامَ لأنفِ العُـــداةِ
فـــصـــارتْ أنوفٌ لنا تُرتغم(٩)

هكذا كنا، وهكذا أصبحنا، وقد عاش الشاعر الصورتين.. عاش الصورة الأولى بوجدان المؤمن، وشفافية الشاعر، وعاش الثانية معايشة الواقع المر الذى رآه حوله على الساحة الفلسطينية والساحة العربية، حيث تنهب الأرض، وتنتهك الكرامات، وتمزق الأعراض، وتدمى الضمائر.

كان هذا هو المظهر الأول من مظاهر الحاضر فى شعر عبد الرحيم الإسلامى، أما المظهر الثانى فهو الدعوة إلى استخدام القوة وسيلة أثيرة، بل وحيدة لإحقاق الحق:

.. قـــوةُ المرءِ لـه حـــجـــتُـــهُ
وهْـى إن يظلم تقفْ نابًا وظُفْـــرَهْ
«وأعـــدوا» لم يقلهـــا ربكمْ
عـــبـــثًـــا، فلتحسنوا فى الذكـر نَظْرَةْ
لم تكنْ هجـــرةُ طه فَـــرَّةً
إنما كـــانت على التـــحـــقـــيق كَـــرَّةْ

ويقول الشاعر:

إذا لـم تـزاحـمْ لـنـيـلِ الحـــــيــــاةِ
أصـــــبْـتَ فَـنَـاءك فــى المُـزْدحَـمْ

ولكن هذه القـوة لا قـيمـة لهـا، إذا لـم يكن وراءها الطاقـة الـروحيـة القـادرة، النابعـة من الإيمان بهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

وخـــيـــرُ الســـلاحِ كـــلامُ الإلـهِ
فـــجـلَّ الإلـهُ، وعـــزَّ الـكَـلِـمْ

ولنا فى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة، فهو الذى:

حـــمـلَ الـقـــرآنَ نـورًا فـى يـدٍ
والـيـدُ الأخـرى بهـا هـزُّ الحُـســامـا
فـالحـســامُ العـضْب أجـدى حـيلةً
فى الذى يُبـصـرُ لكن يتـعـامَى(١٠)

إنه المنهج الذى آمن به عز الدين القسَّام، ودعا إليه، وأخذ نفسه به، وكان دائمًا يقول: «إن الخلاص لن يتحقق إلا بكتاب الله فى يد، والبندقية فى يد أخرى».

وفى تضاعيف هذه القصائد وغيرها يتغنى الشاعر بالقيم الإسلامية من حق، وعدل، وقوة، وحكمة، ومضاء، وسماحة، وإنسانية. لذلك اتسع المجتمع الإسلامى الأول. لا للعرب فحسب. بل للمسلمين أيًا كانت جنسيتهم، فالعبرة بالعمل، وأكرم الناس على الله هو أتقاهم:

وسِـعَتْ دارُنا صـهـيـبًـا وسَلْـمـا
نَ ولـبَّـى بـلالُ بـالـتـكـبـيـر

ومن ثم يرى الشاعر أن شرعة الإسلام فيها خلاص المسلمين، بل خلاص البشرية جمعاء مما تعانيه من أزمات ومشكلات وتطاحن وحروب.. إنها:

شـــرْعَـــة لـو طُبِّـــقتْ مـــا أزْهـقَتْ
أنـفـسٌ تـرْدَى وهـامٌ تـتـرامَى

وانطلاقًا من هذا الإيمان الحى بعظمة الشريعة الإسلامية يصرخ بقومه أن يعودوا إلى هذا المنهل النقى الصافى.. منهل القرآن الكريم العظيم؛ فهو الذى أنقذ العرب من الضياع، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور:

إلى القـــرآنِ عـــودُوا يـا حـــيـــارَى
فـــفـى طيـــاتِـه عِـــبَـــرٌ تَـدلُّ
تدلُّ على المحـــجـــةِ، فـــاتبـــعـــوها
تـفـكـوا ربـقـــــةَ العـــــانـى وتـعْـلُـوا

◆◆◆

لقد استطاع شاعرنا الشهيد عبد الرحيم محمود. بشاعرية قادرة. أن يربط قضية فلسطين وقضايا العرب والمسلمين بالإسلام، فهو. لا غيره. «المرجعية» الصادقة المُثلى التى تقدم الحل الناجع، والدواء الشافى، ولكننا. للأسف الأسيف. غافلون عن هذا المنبع الصافى، بل متغافلون.. متعامون. ولا حول ولا قوة إلا بالله

الهوامش:

(١) أقال العثار: أزال الصعوبات.
(٢) شُرُس الذئاب: الذئاب الشرسة.
(٣) الاخترام: الهلاك.
(٤) غرة: بياض وإشراق.
(٥) غُلّوا: قيدوا (بالأغلال).
(٦) البغاث: طيور صغيرة ضعيفة. السُفل: الأسافل من الناس.
(٧) الغرة: السهو والاستهانة وانعدام التنبه.
(٨) السَّلاب: المغنم.
(٩) الرغام: التراب. وارغم أنفه: أذله وأجبره على فعل ما يريد.
(١٠) الحسام العضب: السيف القوى.

مـن وحي فلسطيـن

رحمـه الله.. لقد كان أمـة.. كان الإسـلام يجرى فى دمـه وأعصـابه وعقله ونَفَسِه، وعاش شامخ الرأس، أبىَّ الوجدان، كريم العطاء، التقيتُه لأول مرة بإسلام آباد فى الثمانينيات، وكان لنا لقاءات فى مكة المكرمة بعد ذلك، كنا نلتقى أنا وهو والأستاذ الداعية أحمد جمال عند الركن اليمانى بالحرم الشريف..

أهدانى ديوانه الفاخر «نجاوى محمدية».. يومها تحدثنا عن الظلم الذى يوقعه الحكم العسكرى بالشعوب العربية. قلت له: «من غرائب الصدف أن فلانًا الذى كان عضوًا فى المحكمة العسكرية التى حكمت بالإعدام على عدد من خيرة الإسلاميين فى الخمسينيات، ينزل فى الفندق الذى أنزل به.. بل حجرته لصيقة بحجرتنا».

فأخرج الأستاذ عمر بهاء الدين الأميرى نسخة من ديوانه «نجاوى محمدية»، وكتب على ورقته الأولى إهداء لهذا العسكرى، وطلب منى أن أسلمه إياه.

قلت له: ولكنه «غير إسلامى»، ودم الأبرياء فى عنقه.

قال الأستاذ عمر: لذلك أهديته الديوان، فأمثال هؤلاء فى حاجة إلى التوجيه والإرشاد أكثر منا.

إنه درس كبير تعلمته من عمر الأميرى.

عاش مغتربًا.. يضرب فى فجاج الأرض، لا شاغل له إلا هموم المسلمين، ومشى يحمل على كتفيه نكبة فلسطين، وأذكر أنه ما أحيى ندوة أو أمسية شعرية إلا وكان لفلسطين الحظ الأوفى فيها.

ترك الدنيا إلى جوار الله.. بكيت عليه. علم الله. أكثر وأطول مما بكيت على أبى. ورثيته بقصيدتين طويلتين.. قلت فى الأولى:

لكنمـا عـشت همـا ضـاريًا نَهِـمًـا
همٌّ اغـتـراب وهـمًّـا من فلسطين

وهمٌ كلُّ شريد مسلم ضربتْ
به الفجاج تلافيقُ السلاطين
أكلما شبَّ جرح في مشارقها
تبيتُ بالمغرب الأقصى كمطعون؟!
وتنزفُ النزْفَةَ الحرَّى مبرِّحةً
وكنت درعًا لموجوعٍ ومحزونِ

ومما جاء في القصيدة الثانية:

مع اللهِ في دربه المستقيم
وأنعم بدرب الإله المُعين!!
فما بين شرقٍ وغربٍ تعيشُ
مآسي الضحايا من المسلمينْ
بروح زكيٍّ، وقلب شجيٍّ..
وشعرٍ غنيٍّ قويٍّ رصينْ
تحملتَ آلامهم ما وهنتَ
ومنها المبينُ ومنها الدفين
وعشتَ على الألم العبقرى
تدكُّ حصونًا وتبنى حصون
وتستنهض الهمم الفاترات
لتخليص مسْرى النبى الأمين

وعاش الشاعر العملاق عمر بهاء الدين الأميرى همًا غائرًا اسمه «فلسطين» وعاش على أمل شغل كل أقطار نفسه هو «تخليص مسرى النبى الأمين»، فعاش بشعره أبعاد النكبة بما تنزفه من دم، وما تعكسه من آلام وأوجاع وانكسارات، وما تبعثه كذلك من آمال واستشراف وتطلعات، فالمؤمن لا يقنط من رحمة الله، وهو بالإيمان والعزم والإصرار يأوى إلى ركن شديد.

وكانت «فلسطين» هى الموضوع الأساس لعدد من دواوين الأميرى، منها ديوان «من وحى فلسطين» وديوان «الزحف المقدس» وديوان «حجارة من سجيل».

وفى هذه الصفحات نعيش مع ديوانه الأول «من وحى فلسطين»، وترجع أهمية هذا الديوان إلى عاملين:

الأول ـ أن الشاعر حمل السلاح وقاتل فى فلسطين بروح الرعيل الأول من المسلمين، فالكلمة فى هذا المقام ـ ترجمة عملية عن واقع فعلى، وممارسة عملية حقيقية.

أما العامل الثانى ـ فهو أن الديوان ضم عن فلسطين شعرًا باكرًا بدأ سنة ١٩٤٦، وتأثر بحرب عام ١٩٤٨، وكشف أسرار الضياع العربى، وحذر من النكبة، فلما وقعت الواقعة عام ١٩٦٧ أرّخ هولها، وفند عواملها، وبكى هزيمتها، وحمل مشعل الدعوة إلى الجهاد.

◆◆◆

لقد انضم الأميرى إلى «جيش الإنقاذ» فى جملة من لبوا النداء للدفاع عن فلسطين قبل النكبة، وكان من بواكير شعره فى فلسطين:

يا فلسطينُ يا تراثَ النبوةْ
يا لسانَ المجد الأثيلِ المفوَّهْ
لا يُضيرْك العدوانُ مهما تمادى
إن هذا العدوانَ مبعثُ قوةْ
أمةَ العُرب فى ركابك هبت
تلقم العاتى الزنيمَ عتوَّهْ
والأباةُ الكماةُ تهتز ثأرًا
كلما مَعْرَجُ الرسولِ تأوهْ

◆◆◆

وشهد الشاعر بعينيه طرفًا من أهوال النكبة، ورأى مئات الألوف من أبناء فلسطين يتركون أرض الآباء والأجداد، ويتشردون فى كل مكان، يستوى فى ذلك النساء والشيوخ

والأطفال:

العـــذارى والحـــامـــلات اشْـتَـــهـــين المو
ت حـــــتى يـدرأن فــــيـــــه الأثامـــــا
والشــيـــوخ الفــــانون عـــضّـــوا بقـــايا
من جـــراح الجـــهـــاد هاجت ضـــرامـــا
والصـــغـــار البـــاكـــون غـــصُّـــوا بمزْج
الدمِ والدمـع، ثـم مـــــاتُوا يتـــــامى
ورجـــــال الكفـــاح ثاروا غـــضَـــابا
عـــــزَّلا يطلبـــــون مــــوتًا زؤامـــــا
فـى فلسطين - يا لقــــومى - رزايا
هل عـــمـــينا عن ذاك أم نتـــعـــامى
والحكومـــات وهْى ســـبعٌ عـــجـــافٌ
قـــد أعـــدتْ للنودِ عنْهـــا كـــلامـــا

◆◆◆

وينظم قصيدة فى موسم من مواسم الحج، فيربط ببراعة بين مشاعر الحج وآدابه من ناحية، وتحرير فلسطين والقدس من ناحية أخرى، فيوجه خطابه إلى «حجيج البيت الحرام المفدى»:

أيهـــا الناحـــرون أكـــبـــاشَ عـــيـــد الـْ
حج، وغـــيًّـــا لخطبنا الضـــخم وعْـــيـــا
لو نحـــــرنا، تفْـــــريطنا وبذلنا
الحجَّ مـــالاً يســـاقُ للقـــدس هديا
ونهـــينا ونحن فى حـــومـــة الكرْ
ب-النفـــوسَ الغـــفلَى عن اللهـــو نهـــيًـــا

فـــإذا مـــا تحــــرر المســـــجــــد الأقـ
ـصى فـــحجٌ حقٌ، وعـــيـــد
وابـتــــغــــاء الحـق الـسـلـيب بـشـكـوى
واحــــتــــجـــاج، ذلٌ، وعـــبـــث
فــــإلـى الله رجــــعـــةً وجــــهــــادًا..
سُنَّة الـفــــتـحِ أن نمـوت لـنحــــيــــا

◆◆◆

وتدور الأيام، وهو يضرب فى فجاج الأرض داعيًا إلى الله والحق والجهاد، ويهل العيد، ولا جديد إلا تفاقم البلاء، وتزايد الشهداء، أما حال الحكومات فماض فى التيه، والدجل، والتمويه، حتى أصبح شأنهم مع شعوبهم أشد وأنكى من سياسة الصهاينة ومكرهم وعدوانهم.

يقـــولون لى عــــيــد ســعــيــد وإنه
لـيـــوم حـــســـابٍ لو نحسّ ونشـــعـــرُ
أعـــيــدٌ وللبــغى العــدوُ تفـــاقمٌ
وأمـــــر ولاة الأمـــــر أنكى وأخطـر
هُمُ أوقـعـوا الهــول الضــروس بقــومــهم
فــهم قـــدروا - ويل لهم - كــيف قـــدروا؟
وهمُ كــبلوا ضــد الهــدى عن جــهــادهم
ومـــا ازدجـــروا، والهــولُ مـــا زال يزأر

◆◆◆

وتمضى إسرائيل فى تحديها الغاشم، ويكون حريق المسجد الأقصى، وكأنه شب فى قلب الشاعر، ويستعجل حريق الأقصى انعقاد مؤتمر القمة الإسلامى، وتكون الذكرى الأولى للإسراء والمعراج بعد الحريق والمؤتمر، فينظم الشاعر قصيدة طويلة مشحونة بالألم والأمل، نقتطف منها الأبيات التالية:

يا يومَ «معراج الرسول» وأنتَ في
كرِّ الدهور، هدايةٌ وسلامُ
عذرًا إذا خنق البكاءُ تحيتي
لك، والأبيُّ على البكاءِ يلام
لكنه الأقصى، وفي نكباته
وحريقه، حبْس الدموعِ حرامُ
دمعُ الأبيّ الحرُّ بعضُ جهاده
وزفيرُه عندَ الوغَى إقدامُ
يا أمةَ المجْدِ العريقِ إجابةً
هل يستقيم لمسلم إسلامُ؟
والمسجد الأقصى يُحرَّق عنوةً
وذوو البلاء عن البلاء نيامُ
حتّامَ نصبرُ، والنوائبُ جمةٌ
تَتْرَى، أليس لجرحِنا إيلام؟!
يا أمةَ المجد العريق توثبي
فالنصرُ حقُّكِ، والجهادُ.. لزام

نعمْ، متى نتألم لجراحنا؟ ومتى تبعثنا آلامُنا أحياء منتفضين على درب الجهاد، بإباءٍ لا يجزع، ويقينٍ لا يفزع، وإيمانٍ تزول الجبال، ولا يزول؟!

◆◆◆

الانتفاضـــة والطفل المارد

إن الانتفاضة خطوة جريئة شجاعة فى سبيل تحويل الخط الحضارى الإنسانى من «السامرية اليهودية» إلى «الربانية الإسلامية» فى أجواء الصحوة المرجوة لأمتنا العريقة المسئولة، وإن من حقها على عقلاء العالم كافة، وعلى المؤمنين والمسلمين عامة، وعلى العرب منهم بخاصة حق عظيم جسيم

يتطلب حشد كل الطاقات والقوى، واستخدام جميع الوسائل المشروعة بمنهجية هادية واعية، وعقد العزائم والإرادات على المضى السوى القوى بها إلى غايتها، فى ضوء فقه حضارى مبين.

وسنصل فى الإبّان المرصود فى أقدار الله، وفق نواميسه الجلًى، التى لا تتخلف عن متّبِعها أقداره قط.، وإنه لحق اليقين، ولتعلمن نبأه بعد حين.

◆◆◆

إن الكلمات المكثفة المركزة السابقة جادت بها قريحة أستاذنا الشاعر «عمر بهاء الدين الأميرى» فى مكة المكرمة فى غرة ذى الحجة عام ١٤٠٨ للهجرة، وهو فى مقام تقييم الانتفاضة المباركة التى قام بها «فتيان» القدس وفلسطين، موجهين للأعداء الصهاينة «حجارة من سجيل» بمقاليع «ترمى الكفر والفسوق والعصيان» بإيمان وإحسان، وإنه لجهاد حتى النصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم».

وكأنه بهذا التقييم الواقعى الذى لا خيال فيه يوجه رسالة للمتخاذلين المرتعشين من «الكبار جدًا» الذين يبيعون «القضية» قطعة قطعة، وسهمًا سهمًا، مؤداها: أن تحقيق النصر يدخل فى دائرة الممكن إذا نهض له من امتلأت قلوبهم بالإيمان، وتفجرت حماستهم غضبًا لله والعرض والحق والأرض وثوابت الأخلاق، يستوى فى ذلك الرجل والمرأة، والشيخ والشاب والفتى... بحيث تكون الأمة كلها جيشًا يحكمه الحق والعدل والإباء واليقين، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وكانت الانتفاضة.. انتفاضة الحجارة هى صوت هذا «الممكن».. الصوت الواقعى الصادق الذى يمثل النذير والبشير.. النذير للأعداء الصهاينة ومن والاهم من المخنثين المطبعين المسالمين المستسلمين، الموكوسين المنكوسين، الضالين المضلين، الفاسدين المفسدين، الناهبين الهابشين.

أما البشير فللشعب الفلسطينى الأبى الممتحن الصبور بأن الفجر آت عن قريب، ما دام فى الشعب الفلسطينى «أطفال مقدسيّون» فى صدورهم قلوب عمالقة صناديد أبطال يرمون الأعداء «بحجارة من سجيل» لقد قدم الأميرى أبعاد هذا النضال الطفولى الرجولى البطولى الصاعق فى قصيدته الخالدة «طفل فلسطين المارد» واستهلها (رحمه الله) بهذا الاستهلال القوى المتوهج:

صائحًا: الله أكبرْ

ضاق بالقمقم... واستعلى عليه..

فتكسرْ...

وانبرى من سجنهِ

مثل شهابِ

وتحررْ...

عقدَ العزمَ أبيا

ومضى لا يتعثرْ...

صائحًا: الله أكبرْ...

❖❖❖

إن هتاف «الله أكبر» - وقد كرره الشاعر فى القصيدة إحدى عشرة مرة - هو العبارة المحورية التى ارتبطت بها كل خيوط القصيدة، ومنحتها دفقات من «العبق الطيب» الذى حملته وتحمله على مدى التاريخ.

- فهى عبارة تعبدية تتكرر كل يوم فى «الأذان» عشرات المرات، وكذلك فى الأعياد والحج.

- وهى عبارة «جهادية» تاريخية، فقد كان شعار المسلمين وهم يزحفون إلى حصون خيبر «الله أكبر، خربت خيبر»، وبذلك جاءت أوفق العبارات فى قصيدة الأميرى لربط القديم المنتصر بالجديد المناضل المتطلع إلى النصر والتحرير.

- وهى أكثر العبادات دورانًا على ألسنة المسلمين فى كل العصور، وخصوصًا على ألسنة المظلومين فى شهادتهم على الظالمين، أو مواجهة الجبابرة المدلّين بجبروتهم، المتطاولين على شعوبهم. فهى عبارة تمنح المظلومين شحنة من الثقة والإيمان واليقين، وتهز الظالم الغاشم الدعىّ، أو - على الأقل - تذكره بأنه إذا اعتقد أنه «كبير» فهناك الخالق القادر «الأكبر».

فلم تكن هذه العبارة المحورية فى القصيدة «تَرَفًا بلاغيًا» أو «حلية بيانية»، ولكنها مَعين ثرار غنى بالإيحاء الروحى والتربوى والتاريخى والسياسى الشريف.

◆◆◆

وبعدها يعرض الأميرى - فى إيجاز - المسيرة التربوية الجهادية لحياة «الطفل الفلسطينى المارد» فى تصاعدها البطولى النبيل:

أنف الزيفَ، ووأدَ الحقِّ
مُذْ كانَ وليدا
ونما... ثم نما فى الرفضِ...
جبارًا عنيدا
يركبُ الموتَ ليحيا رافعَ الرأسِ
مجيدا...
لا يبالى...
كان حىّ الجسمِ
أم حيًا شهيدا
صائحًا: الله أكبرْ.
قهرَ الصعبَ ببأس من حديدِ

ليسَ يُقهرْ

يتحدى النار كالإعصار...

يصلاها... ويجازْ

ضارعًا لا ينثنى

يُمعنُ فى الزحفِ المظفَّرْ

صائحًا: الله أكبرْ

❖❖❖

ويتحدث الأميرى عن «نبل الغاية» التى يتغياها الطفل البطل بجهاده، وهى «وجه الله» ولذلك هانت عليه التضحيات والجراح، فهو يضم جراحه فى صدره المعفر بكفه اليسرى:

واليدُ اليمنى بها القرآنُ

ملءَ الكون يزأرْ

وهو يشتدّ... ولا يرتدّ

يمضى كالغضنْفَرْ

صائحًا: الله أكبرْ

ويقدم الأميرى مشهدًا نابضًا بالقوة والحركة المتوهجة لهجوم الطفل المارد على الصهاينة، وما ينزله بهم من خسائر، وما يزرعه فى قلوبهم من خدع، وهو من أبلغ وأقوى مشاهد القصيدة على إيجازه الشديد:

إنه ينقضُّ... لا ينفضُّ...

مثلَ الصاعقةْ

من سموات الهدى والحق

خرتْ حارقةْ

بعثرت من جندِ «صهيونَ»

جموعًا ناعقةْ

وستغدو ليهود الظلم طرًا

ماحقة..

صائحًا: الله أكبرْ

◆◆◆

وبأساليب متعددة يبرز الشاعر حقيقة إيمانية واقعية صادقة خلاصتها: أن مرجع النصر هو الله سبحانه وتعالى، وهى حقيقة رددتها آيات متعددة:

■ ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم: ٤٧).

■ ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (محمد: ٧).

■ ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال: ١٧).

وانطلاقًا من هذه الحقيقة الإيمانية نرى هذا «الطفل الفلسطينى المارد»:

يهدمُ الطاغوتَ

يبنى للعلا الصرحَ الممرَّدْ

زاحفًا بالحجر المرمىِّ

كالسهم المسدَّدْ

حجرٌ

من أرض «قدس» المجد

فيه سر «أحمد»

من حصى الأرض

ولكن

بالسموات مؤيد

◆◆◆

ويأتى ختام القصيدة مكرسًا هذا المعنى فى كلمات مقطرة قوية قلائل، ذات جرس موسيقى صاخ مرتكزًا على الهتاف المحورى «الله أكبر» الذى جاء هذه المرة مكررًا مرتبطًا

بالخلودية، وديمومة البقاء، ليكون الحافز القوى للأجيال على مواصلة الكفاح حتى تتواصل الانتصارات، وكأنى بهذا المقطع جاء نشيداً تبشيرياً بالنصر المبين:

قدرُ اللهِ المقدّرْ

أججَ الزحفَ وفجّرْ

فتبارى كل قسوَرْ

صائحًا: الله أكبرْ

أزلاً: الله أكبرْ

أبداً: الله أكبرْ

باسمهْ نعلو ونُنصر

◆◆◆

الطفـــل الفلســطينى الشــهيد:
محمد الدرة فى قلوب الشـعراء

محمد الدرة - ابن الاثنى عشر ربيعًا - طفل من فلسطين المقاتلة، لم يولد وفى فمه ملعقة من ذهب، ولم يُقَمَّط عند مولده بالحرير والديباج، فأبوه - جمال الدرة - عامل بناء بسيط، يحرص على رزق يومه ليعول أسرته الكبيرة.

سقط الطفل محمد برصاص الغدر الصهيونى، أما أبوه - وقد حاول أن يحميه بجسده - فقد سكن جسمه ثمانى رصاصات أصابته بالشلل التام.

وكان استشهاد هذا الطفل الطاهر البرىء شرارة أيقظت الضمائر النائمة، وبعثت النبض فى القلوب الخامدة، وأجرت فى عروق أطفال العرب همة ملتهبة، وفتحت عقولهم لوعى جديد، فرأينا فى المدن المصرية أطفال المرحلة الابتدائية يهبون فى تظاهرات لا تنقطع، وهم يهتفون «خيبر خيبر يا يهود، جيشُ محمد سوف يعود، وكلنا دُرَة، كلنا درة، مشْ حننام أبدًا بالمرة، وكلنا درة، كلنا درة، حنخليْ عيشتهم مُرَّة».

ولا ينسى المجتمع المصرى قصة طفل مصرى - فى سنّ الدرة - هو التلميذ أحمد محمد سعيد الذى ترك أسرته، وغادر القاهرة ميممًا شطر غزة ليشارك أطفال الانتفاضة جهادهم، ويأخذ بثأر محمد الدرة، لم يكن أحمد يعرف الطريق، فسافر من القاهرة إلى الإسكندرية، وقضى ليلته فى المحطة قبل أن يغادر الإسكندرية إلى العريش، ووصل إلى رفح، وتحمل من الجوع والتعب ما يجهد الرجال، وحاول الوصول إلى غزة، فلم يتمكن، وأعاده رجال الأمن إلى أهله بالقاهرة، وعيناه تفيضان بالدموع، وقلبه يتدفق بالحزن؛ لأنه لم يكمل المشوار، ولم يحقق الهدف الذى خرج من أجله.

إنه مَثَل واحد يدل على هذه الروح الجديدة التى بدأت تنبعث وتتوهج فى كيان هذه الأمة.

والعالم كله يعلم أن إسرائيل قتلت - وما زالت تقتل - كثيرين من الأطفال والشيوخ والنساء، حتى أصبح قتل طفل عملاً إجراميًا يوميًا فى سيناريو العدوان الوحشى الإسرائيلى.

فلماذا كان قتل محمد الدرة أكثر إثارة وتأثيرًا، لا على المستوى العربى والإسلامى فحسب، ولكن على المستوى العالمى كله؟

أعتقد أن قوة الإثارة والتأثير التى عكسَها هذا الحدث الإجرامى ترجع إلى سببين أساسيين هما:

١ - أن هذا الطفل المسكين لم يكن فى الأطفال الذين يرمون الجنود الإسرائيليين بالحجارة، حتى يقال: إنه قتل عقابًا على ما فعل، ولكنه - كما تثبت الصور - كان يطلب الأمان والحماية، والوصول إلى برّ السلامة، فاحتمى بأبيه الذى كان يلوذ بحائط أسمنتى صغير، وبرميل حديدى، ويحاول الأب أن يجعل من جسده ساترًا آخر يقى ابنه الرصاص.

٢ - التغطية التصويرية الحية الكاملة من البداية للنهاية:

- الأب والابن يحتميان بالحائط الصغير والبرميل الحديدى، وهما يجلسان على الأرض متجاورين ملتصقين، والطفل يحاول أن يدفن رأسه بين ركبتيه، وقد جلس فى هيئة احتباء.

- الأب يرفع يده مستغيثًا، ومتوسلاً للجنود الإسرائيليين ألا يطلقوا عليهما الرصاص من أعلى.

- الصيحات والاستغاثات تدوى فى الهواء أمام صرخات الرصاص وزئير الانفجارات، وانتشار الدخان.

- الطفل يزداد التصاقه وتشبثه بجنب أبيه الجريح وظهره، وجزءٍ من قميصه، والفزع يكاد يمزّق وجهه وعينيه.

- استغاثات الأب الجريح تزداد مع تدفق الدم من جراحه.. بلا جدوى.

- الرصاصات القاتلة الغادرة تصيب الطفل، وترديه فيهوى بنصفه الأعلى على الفخذ

اليمنى لأبيه، وقد انكفأ بوجهه المفزوع على كفيه.

- الأب يميل برأسه إلى اليمين - بعد أن فارق ابنه الحياة، وأصيب هو بعدة رصاصات، وبدأ رأسه يميل قليلاً إلى أسفل، كزهرة عباد شمس ذابلة شاحبة، فوق رقبته النحيلة المعروقة، وقد زم شفتيه فى صمت مستسلم رهيب، كأنه يخشى أن يئن أو يتوجع فيقلق ولده وهو فى نومته الأبدية، وكانت آخر كلماته المفزوعة لأبيه «لو بتحب ربنا احمينى يا بابا».

◆ ◆ ◆

إنها مشاهد درامية متكاملة فى سيناريو قَدَرى، تتضاءل أمامه كل قدرات الفن، وآليات الإخراج، وبراعات التمثيل.

كتب الكاتب الفرنسى الشهير «فرنسيس كباتندا» فى مقال له بمجلة «جون أفريك»: «... إن محمد الدرة لم يكن ضمن انتفاضة الفلسطينيين، وأيضًا لم يكن محترفًا فى رمى الحجارة، وقد أظهر محمد الدرة للعالم وحشية الشرطى الإسرائيلى، حيث إنه لم يكن موجودًا بمحض إرادته فى هذا المكان، ولكنه وجد نفسه مع أبيه فى مواجهة الاحتلال الإسرائيلى، إن محمد الدرة لم يكن يملك رصاصًا للدفاع عن نفسه، لم يكن يملك إلا قلبًا حزينًا، وعيونًا تملؤها دموع الخوف...».

وكان من الطبَعى أن يكون لهذا الحدث المأساوى صداه القوى فى الشعر؛ فالشعر مرآة الأمة، ونبض الشعب، ولا عجب أن يكون الشعراء - بما آتاهم الله من رهافة الحس، وقوة العاطفة، وتدفق الشعور - أسرع الناس استجابة وتفاعلاً مع هذا الحدث الدامى، ومع الطفل الشهيد: محمد جمال الدرة.

لقد عالج كثير من الشعراء مأساة الطفل الشهيد، وانطلقوا منها إلى الحديث عن مأساة الشعب الفلسطينى، ونكبة الأمة العربية والإسلامية، وضياع القيم الإنسانية فى عالم الأنياب والأظافر، وفى السطور الآتية نعيش بعض ما نظمه الشعراء فى هذه المأساة بقدر ما تسمح به المساحة المتاحة.

◆ ◆ ◆

فى تصوير بارع يقدم الشاعر أحمد بخيت «مناجاة رثائية دامعة» يتحدث فيها إلى الطفل الشهيد، وعليها طوابع الأمومة والأبوة، وروح الشعب الأبى المناضل، وعلى القصيدة يهيمن جو من عبق القداسة صنعته الكلمات والعبارات الدينية والتراثية مثل: قرآن - الإنجيل - الكليم - المسيح - الأمين - المصلين السجود - ألق النبوة - البشارة - الأنبياء - المعجزات...

ويغلب على القصيدة موسيقى وترية منسابة تشبه الموسيقى الجنائزية التى تثير فى النفس كوامن الأسى والأشجان، يقول الشاعر أحمد بخيت:

يا كحلَ عينى يا محمد
يا رغيف الطيبين
يا يوم عيدى
يا شهيدى
يا مخيم لاجئين
....
احمل سلامى للكليم
وللمسيح
وللأمين
يا ذاهبًا للموت وحْدَك
والجنود على الحدود
لتعيد للقبل الشفاه
وللمصلين السجودْ

وتتحول الموسيقى إلى نبر نحاسى صاخ تبعًا لطبيعة الفكرة المؤدّاة، كما نرى فى قول الشاعر:

يا راميًا حجر الكرامة
هل رأى البارود عاره؟

اقرأ علينا آية الثوارِ

من سِفر الحضارة

وَدَع رهان الخاسرين

ومت

لتنطلق البشارة

دبابتى لحْمى

دمى البارودُ

قنبلتى حجارة

◆ ◆ ◆

ويبرز الشاعر ممدوح المتولى - فى تجربة إبداعية جديدة - مأساة الطفل المغتال، ولكن على لسان والده فى قصيدته «بكاء الأسئلة: إلى ولدى محمد» فقد عالج هذه المأساة بأسلوب قصصى، فى شكل أسئلة يطرحها الأب المفجوع على ابنه الشهيد، إنها أسئلة «العارف المدرك» وكيف يجهل خيوط المأساة من عاشها، واكتوى بنارها؟ هى مأساة توغلت بأحزانها المتسعرة إلى قلوب الأسرة بكل أفرادها:

من أين جاءتك الرصاصةُ يا محمد؟

قل كيف ثقَّبت الجسد؟

....

قل كيف أقرأ وجهَ أمكْ؟

إنها بالبيت تنتظرُ

قل كيف أقرأ وجهَ إخوتك الصغار؟

هم عند باب الدار

ينتظرون عودة طائر

غدرُ البنادق قتَّله

وفى تضاعيف القصيدة يُجرى الشاعر على لسان الأب عبارات الحب الأبوى المكين: يا ولدى - يا حبة العين - يا حبيبى - يا ضنى روحى. ويصعّد الشاعر من حرارة العاطفة الأبوية الحانية، والتلاحم الروحى والوجدانى، وجاءت الرصاصات الغادرة شهادة على ذلك؛ فهى لم تسكن جسد الطفل الشهيد إلا بعد أن مرت بصدر الأب الحانى المفجوع:

جاء الرصاصُ محملاً بغباءِ سُمِّهْ
شقت إليك رصاصة صدرى
ومرت من فؤادى
حشّت عظامَ الظهرِ
لم ترحم عنادى
جاءت إليك، وأنت تصرخ يا أبى
وأنا أضمك يا محمد

❖ ❖ ❖

وإذا كان الشاعر «ممدوح المتولى» قد جعل قصيدته خطابًا من الأب جمال الدرة إلى ابنه الشهيد، فإن الشاعر «عبد الله بن حسين» جعل قصيدته خطابًا موجهًا من الشهيد محمد الدرة إلى أمه، وهو يستهلها بقوله:

أمـــــاه: قـــــولى لى: نعمْ قـــــد صــــــرتُ فى الأقـــــصى عَلَمْ
فـــــأنا الـذى شـهـــــد الأنـامُ شـــــهـــــادتى يا خـــــيـــــرَ أمْ
أنا لـست يـا أمـــــاه أصــــــرخ مـن يـهـــــود فـــــذاك ذم
أنا إنمـا يا أمّ أصـــــرخ مـن ضـــــيـــــاع حِـــــمَى الحـــــرمْ

والشاعر فى قصيدته يُنْطق الطفل الطاهر البرىء بلسان المفكر الكبير والسياسى البارع الواعى، فحماسته للطفل الشهيد واعتزازه به دفعاه إلى تقديمه بصورة تفصله عن واقعه العضوى البسيط، مما يجعل بينه وبين القارئ حائلاً كثيفًا، وكيف يقتنع القارئ بأن الخطاب التالى صادر من طفل لم يجاوز الثانية عشرة:

أنا إنما أبكى على موت المبادئ والقيمْ

موت الأصالة والشهامة والكرامة والشيمْ

باراك ليس بقاتلى بل قاتلى موت الهممْ

إن المضمون الفكرى للقصيدة فيه عظمة وجلال، ولكنه لا يتناسب مع الواقع العقلى لطفل صغير، ولكل مقام مقال، والبلاغة - كما قالوا - مراعاة مقتضى الحال.

❖ ❖ ❖

وفى مقام الإدانة لا ينكر عاقل عادل أن اغتيال الدرة يَصِم إسرائيل بالوحشية والخسة والنذالة، وهى جريمة هزت كل الضمائر فى العالم كله من مسلمين ومسيحيين.

ويقدم لنا الدكتور القسّ مكرم نجيب - راعى الكنيسة الإنجيلية بمصر الجديدة بالقاهرة - قصيدة حوارية رائعة، أدار الحوار فيها بين أحد المواطنين، والطفل الشهيد محمد الدرة، ونكتفى منها بقطف واحد من قطوفها: يطرح المواطن عدداً من الأسئلة على محمد الدرة، منها:

من دنّس الأقداسْ	وأغضب الرحمنْ؟
من أسكت الأجراس	وأشعل النيران؟
من حطم الإحساسْ	ودمّر الإنسان؟

فيجيبه محمد الدرة:

هم عصبة السفاحْ	هم حفنة الأنذالْ
قد أزهقوا الأرواح	وأهلكوا الأطفال
وأطفأوا الأفراح	وبسمةَ الأجيال
لم يرحموا دمع أبى	أو يرحموا خوفى
بل أطلقوا نيرانهم	فالتهمت جوفى
ولم أبال سيدى	بمصرعى أو مولدى
بل كل ما عذبنى	هو احتراق والدى..
وكل ما يشغلنى	هو انعتاق بلدى

ونرى كثيراً من الشعراء يلقون باللائمة على حكام العرب وكبارهم بدعوى أنهم فرّطوا فى القضية، ولم يعطوها من الاهتمام العملى ما كان يجب أن يكون فى حجم هذه القضية الكبرى، وكثيراً ما يصل الأمر إلى حد الإدانة الصريحة، والاتهام الصارخ المتسعر، كما نرى فى قصيدة الشاعر عصام الغزالى «لا تجهضوا حلم الصغار»:

والله يشهد أنكم	سحب الدخان بغير نارْ
النار صار وقودها	الإفلاتُ من عجز الكبار
وشهيدها طفل رَمى	ثم ارتمى تحت الجدار
من فضلكم لا تفتحوا	باب الحوار والاعتذار
عودوا فقد صدئ الحديدُ،	وملّنا صبرُ الحمار
ودعوا لأطفال الحجارة	وحدهم أخذ القرار
إن فاتكم غليانكم	لا تطلبوا كتم البخار
إن الدماء إذا جرتْ	كتبتْ وثائق الانتصار
والطفل يعرف شهقهُ	مات الشهيد بغير عار
لبيك يا مسرى النبىّ	أنا الصريع على الطوار
لله يا صُنعَ الفتى	لا تجهضوا حلم الصغار

❖ ❖ ❖

ويفضح الشاعر جابر قميحة منطق هؤلاء الكبار الذين ينكرون على المجاهدين جهادهم، ويصرخون فيهم:

إنّا ملكنا البديلَ الفذَّ فى يدنا
حتى يسود التُّقى والعدلُ والسَّلَمُ:
مباحثات وتصريح ومؤتمر
كذا عناق يليه الوعدُ والقسمُ
وإن تمادى العِدَى فالحلّ مؤتمر
ضخم لنشجبَ ما عاثوا وما أثموا

وينحو الشاعر «مصطفى مقلد» منحى ثالثًا: فيتوجه بخطابه إلى الطفل الشهيد محمد الدرة، ومن خلاله يسوق «قرار الاتهام» ويفضح حقيقة هؤلاء الحاكمين، وما جنوْه على شعوبهم، وذلك فى قصيدته الرائعة «دمعة على قبر الطفل الشهيد محمد الدرة»:

أفديك يا ولدى بكل الحاكمين
الجاثمين هياكلا فوق الشعوب
لهم أياد من حديد
شرْعهم: لا شرعَ.. لا أخلاقَ
لا عهدا لدين
أفديك يا ولدى بمن خانوا
ومن جبنوا على مرِّ السنين
البائعين ديارَهمْ
والمالئين كروشهم
والعابدين عروشهم
والحاضرين الغائبين
يا ليتهم كانوا مكانك
عند قتلك
صاغرين.. مصفَّدين
يا ليتهم إذ شيعوك
مضَوْا كذلك أجمعين

❖ ❖ ❖

إن التغافل واللااكتراث، وضعف الشعور بالمسئولية، والتفريط فى الأمانة التى أنيطت بأعناق الكبار والحكام، والانصراف عن الجادة المستقيمة إلى زخارف الحياة الدنيا وزينتها... كل أولئك دفع الشاعر وحيد الدهشان إلى التدفق بالغضب والنقمة على الكبار والحكام،

حتى إنه يرى فى الموت عافية وخلاصًا من التسلط والهوان، فنراه يخاطب الدرة قائلاً:

عوفيت بالقتل فالناجُون قتلانا
والذل يأنف منّاً حينَ يلقانا
كم ضاع مثلك آلافٌ بلا ثمن
ونال حكامنا فى السلم نيشانا
أبْدَى عليك عميق الحزن بعضهمو
والحزن يغدو بما يجنون أحزانا

❖ ❖ ❖

وقصيدة الشاعر عبد الله رمضان، وعنوانها «فسلاحهم شجْب وثورتهم تخاذل» لا تخرج فى محتواها الفكرى عن مضامين القصائد السابقة، ولكنها تتميز فى أدائها التعبيرى بقوة الإيحاء، والتدفق الموسيقى العالى، وجاء رويُّ اللام الساكنة كأنه طلقات المدافع، وتأتى الإدانات تترى فى شكل أحكام سريعة متتالية لا يفصل بينها إلا الرويُّ الصاروخى القارع:

الكلّ باطلْ
والكل قاتلْ
والكلّ فى بئر الخيانة والرذائلْ

ومع ذلك لم يستسلم الشاعر للحزن، ولم يتسرب إلى نفسه اليأس، فهو يرى أن الأمل معقود بالأطفال الذين يجابهون العدوّ الغاشم بحجارتهم، وبعزيمتهم تتحقق من جديد أمجاد أسلافنا الأبطال العظام:

الليل راحلْ
والصبحُ داخلْ
بدم الشهيد يسيلُ ما بين المداخلْ
وبقلبه المحروق فى لهب القنابل
وبصدره المخروق من رشاش سافل

الليلُ زائلْ

بدم الثكالى والأراملْ

من حفنة الأحجار تقذفها الأناملْ

◆ ◆ ◆

وثمة ملمح فكرى جديد يبرزه الشاعر توفيق الحاج فى قصيدة له، وخلاصته أن استشهاد محمد الدرة كان يجب أن يكون دافعًا للكبار للتخلى عن المهازل والموبقات والتشاحن والتباغض، فيخاطبهم فى شدة ومرارة قائلاً:

يا سادة العربْ

يا صفوة العربْ

محمد الصغير قد ذهبْ

وأنتمو تتعاظمون كساحلِ الجليدِ

أو كيابس القصبْ

محمد الصغير قد ذهب

وأنتمو أمام تلفازاتكم تشربون

ترقصون

تتساقطون دونما تعب

محمد الصغير قد ذهب

وأنتمو أمام تلفازاتكم

تتشاتمون... تصرخون.. تغضبون

وقتما لا يستحى الغضبْ

◆ ◆ ◆

ويوسِّع الشاعر عبد الرحمن العشماوى «دائرة الاتهام» فيرى أن مسئولية اغتيال الطفل محمد الدرة وغيره من الأبرياء، وكذلك ضياع الأرض وحقوق الشعب الفلسطينى لا تقع

على إسرائيل والصهاينة فحسب، بل تقع كذلك على العرب حكومات وشعوبًا، وعلى أمم العالم والمنظمات الدولية التى لا تنتصر إلا للقوى الغاشم، فيهتف بلهجة غضب وأسى على لسان جمال الدرة والد الشهيد محمد الذى كان الشاعر يعتقد أن اسمه رامى:

يا أهلَ النخوة من قومى	من يَمَنِ العربِ إلى الشامِ
يا أهل صلاةٍ وخشوع	يا أهل لباس الإحرام
يا كل أبٍ يرحم ابنا	يا كلَّ رجال الإسلام
يا أهل الأبواق أجيبو	يا أهل السبْق الإعلامى
يا هيئة أمم مُقعدةً	تشكو آلاف الأورام
يا مجلسَ خوف أحسبهُ	أصبح مأجور الأقلام
يا أهل العولمةِ الكبرى	يا أخلص جندِ الحاخام
يا من سطّرتم مأساتى	ورفعتم شأن الأقزام
يا أهل النخوة فى الدنيا	أوَلستم أنصار سلام؟
أسلامٌ أن تسرق أرضى	أن يُقتل فى حضنى رامى؟

ويؤكد العشماوى هذا المعنى فى قصيدته الثانية التى جعلها بعنوان: «هو رامى أو محمد» وهذه القصيدة تُعدّ من أرقى ما نظم الشاعر تصويرًا وتعبيرًا، وقد برئت القصيدة من التقريرية، والإغراب الانفعالى، وارتكزتْ على صورة المشهد/ المأساة، فكانت عبارة «صورة المأساة تشهد» هى العبارة المحورية التى يُصدِّر بها الشاعر كل «قرار» من قرارات الإدانة.

وأقل ما يقال عن جناية العالم المتحضر أنه وقف متفرجًا على المأساة، لا يحرك ساكنًا:

صورة المأساة تشهدْ
أنّ طفلاً وأبًا كانا على وعدٍ من الموت محدَّدْ
مات رامى أو محمدْ
مات فى حضن الأب المسكينِ
والعالم يشهدْ

مشهدُ أبصره الناسُ

وكم يخفىَ عن الأعينِ مشهدْ

....

إن حسَّ العالم المسكون بالوهم مَبلَدْ

إن شيئًا اسمه العطفُ على الأطفالِ

فى القدس تجمدْ

وهذا هو نصيب العالم «المتحضر» من مسئولية المأساة، أما نصيبنا - نحن العرب والمسلمين - فهو - للأسف - نصيب وافٍ، كثفه الشاعر فى عجالة، ربما.. لأنه بدهية لم تعد تحتاج إلى تفصيل:

صورة المأساة تشهد

أن جرح الأمةِ النازف منها لم يُضمَّدْ

أن دَيْن المجد ما زال علينا لم يسددْ

أن باب المجد ما زال عن الأمة يُوصدْ

لكن الشاعر - مستنطقًا صورة المأساة - يعدد جنايات الصهاينة وجرائمهم، وقتل الدرة واحدة منها. فصورة المأساة تشهد:

- أن إرهاب بنى صهيون

فى صورته الكبرى تجسد

- أن لصًا دخل الدار وهدد

- أن جيشًا من بنى صهيون

للإرهاب يحشد

- أن نار الظلم والطغيان توقد

- أن أشجارًا من الزيتون تُجتثّ

وفى موقعها يُغْرس غرْقدْ

- أن ما أدلى به التاريخ من أخبار صهيون مؤكد

❖ ❖ ❖

إن الموضوع يحتاج إلى استيفاء أكثر وأشمل وأوفى؛ لأن القضية ليست قضية طفل شهيد، ولكنها قضية شعب ذبيح على أيدى عصابات متوحشة خسيسة فى عالم لا اعتبار فيه إلا للقوى الغاشم.

ونحن - العرب والمسلمين - يجب أن ننطلق فى سلوكياتنا وتعاملنا مع الآخرين من هذا المفهوم، كما أن علينا أن نفيد من وقائع الواقع المرّ الدامى الذى نعيشه، ونعد أبناءنا من صغرهم لمستقبل المعاناة والجهاد والصبر والمصابرة، وليس هذا بالصعب والمستحيل ما خلصت النوايا، وصدق العزم، وكرسنا الجهود، وتوكلنا على الله.

الأدب الصهيونى
عدوانية وتعصب

من حقائق التاريخ الثابتة أن قدماء اليهود لم يجاوزوا أطوار الحضارة السفلى التى لا تكاد تُميّزُ من طور الوحشية، وحينما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم من باديتهم ليستقروا فى فلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدنة منذ زمن طويل... فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما فى حضارتها، أى لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارة ودعاراتها وخرافاتها، وإذا عدوت العهد القديم وجدت بنى إسرائيل لم يؤلفوا كتاباً.

ومزاجهم النفسي - كما يستنبط من أسفارهم - ظل على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب بدائية، فقد كانوا عُنُداً مندفعين غُفلاً سُذَّجا حفاة كالوحوش والأطفال.

وإذا أريد وصف المجتمع اليهودى من ناحية النُظم أمكن تلخيصه فى كلمتين هما: نظام رعائي مع طبائع المدن الآسيوية الهرمة وذوقها وخرافاتها.

ويعبر «حزقيال» عن ذلك الرأى فى الفصل السادس عشر حين يذكر ظهور الشعب اليهودى الحقير وأوائله الهزيلة، وما عقب استقراره بفلسطين من الحميا، فيقول مخاطباً تلك الأمة العاقة:

«وفى جميع أرجاسك وفواحشك لم تذكرى أيام صباك، وإذا كنت لم تشبعى زنيت مع بنى آشور، ولم تشبعى.. فلذلك أقضى عليك بما يقضى على الفاسقات وسافكات الدماء، وأجعلك قتيل حنق وغيرة».

ومع ذلك ترعرعت قناعة شديدة بين كثير من غير اليهود أن اليهود شعب متفوق يعيش حالياً بين شعوب أخرى ولابد من إعادته إلى وطنه القديم فى فلسطين حيث نمت جذوره

وتقاليده وخواصه المتميزة، ونبتت فكرة أن القوة السماوية هى الوسيلة لإعادتهم إلى فلسطين لتحل محلها فكرة النشاط والإنجاز البشرى، وبخاصة جهود اليهود وغير اليهود المشتركة.

ومن ثم نشأت الصهيونية Zionism فكانت ومازالت دعوة وحركة عنصرية دينية استيطانية إجلائية مرتبطة نشأة وواقعاً ومصيراً بالإمبريالية العالمية، تطالب بإعادة توطين اليهود وتجميعهم وإقامة دولة خاصة بهم في فلسطين بواسطة الهجرة والغزو والعنف كحل للمسألة اليهودية.

والكلمة نسبة إلى «صهيون» اشتقها «ناتان برنباوم» عام ١٩٨٠ ليصف بها تحول تعلق اليهود بجبل صهيون وأرض فلسطين من البعد «الدينى الماشيحانى» القديم إلى برنامج سياسى استعمارى إقليمى يستهدف عودة الشعب اليهودى إلى فلسطين.

❖❖❖

وقد وجدت الصهيونية الرومانتيكية تعبيراً لها فى أدب القرن الثامن عشر وكتاباته السياسية، فلم تعد الشخصيات اليهودية بارزة فحسب، بل إنها كانت تعامل بأشد الاحترام، ولا تقدم الشخصيات كأفراد بل كأعضاء فى أمة تحظى بالشفقة أحياناً بسبب ما تقاسيه من ويلات وتنال - فى الغالب -الإعجاب بسبب طاقتها الهائلة على الاحتمال والبقاء. وكان اليهود يلقون دائماً التشجيع للعودة إلى كيانهم القومى الأصلى فى فلسطين.

❖❖❖

وعلا صوت الأدب الداعى للصهيونية والمناصر لها، وهى أصوات رفعها كبار من شعراء الغرب وكتابه، ومن أشهر هؤلاء الشاعر الإنجليزى «لورد بيرون» (١٧٨٨ - ١٨٢٤) الذى كان يعبر دائماً عن إعجابه بالعظمة الكامنة فى قدرة الشعب اليهودى، وتناول فى كثير من قصائد مجموعته الشعرية «الألحان العبرية» عام ١٨١٥ الأفكار التوراتية والفلسطينيين، وقد جعل خاتمة أشهر قصائد هذه المجموعة وهى بعنوان «ابك من أجل هؤلاء» المقطع التالى:

أيتها القبيلة الكثيرة التجوال

وذات الصدر المرهق

كيف ستستقرين وتشعرين بالراحة

إن للحمامة عشها

وللثعلب وكره

وللبشرية وطنها

أما إسرائيل فليس لها إلا القبر

ويركز «بيرون» - فى قصائد أخرى - على الرابطة بين فلسطين واليهود. وقد سافر الشاعر نفسه إلى فلسطين عام ١٨١١، وعبر عن صدمته بما شاهده من بؤس وفقر فى الأرض المقدسة، وتدعو قصيدتاه «الغزال البرى» ويوم هدم تيتوس المعبد» للعودة وتحرير الأرض.

ونرى السير والترسكوت - أول الروائيين الكبار فى القرن التاسع عشر - يرسم فى روايته «إيفانهو» شخصية يهودية ذات ميول صهيونية، وهى شخصية «ربيكا» إنها شخصية مثالية للمرأة اليهودية، وهى مخلصة فى الدفاع عن قومها، وتعطى الدليل على أن «سكوت» كان متعاطفاً مع وضع اليهود ومشاعرهم، وسكوت فى تصويره لربيكا لا يرثى لمصيبة الشعب اليهودى فحسب، ولكنه يدعوهم للعمل، لأن «صوت البوق لم يعد يوقظ يهوذا».

وهذه الفكرة، أو هذا الشعار «صوت البوق لم يعد يوقظ يهوذا»، أصبح له هيمنة على كثير من الإبداعات الصهيونية خصوصاً القصص، كما نرى فى قصة الكاتب الصهيونى «ش. دبونين مآخذ الشيطان على فاوست».

والكاتب يريد أن يقول فى هذه القصة ينبغى على اليهود أن يدركوا أن العالم كله - حتى القوى السماوية فيه - لا تعبأ بعذابهم، بل إنها تنتقم ممن يتصدى للدفاع عنهم، فتضعه مثلهم موضع العذاب كما يحدث للشيطان فى هذه القصة. وبالطبع فإن الدعوة تكون: إنه ينبغى على اليهود أن يتجمعوا فى مواجهة هذا العالم الشرير.

◆◆◆

ويعزف «وليم وردزورث» على وتر مشابه «لبيرون» فى قصيدته «أغنية لليهودى المتجول»

وقصيدته «أسرة يهودية».

❖❖❖

وكان «روبرت براوننج» شاعراً ضليعاً فى الأدب اليهودى، وقد ساعدته معرفته بالعبرية على قراءة العهد القديم، وكان اليهود فى نظره مثالاً للتواصل، وسيتجلى مستقبلهم القومى فى فلسطين. وجاء في قصيدة نظمها عام ١٨٥٥:

سيرحم الله يعقوب

وسيرى إسرائيل فى حماه

عندما ترى يهوذا القدس

سينضم لهم الغرباء

وسيتشبث المسيحيون ببيت يعقوب

هكذا قال النبي

وهكذا يعتقد الأنبياء

❖❖❖

والأدباء والشعراء الذين ذكرناهم سابقاً قد تشربوا الفكر الصهيونى قبل نشوء إسرائيل مع أنهم ليسوا يهوداً، فقد كان هناك فريق من المسيحيين يطلق عليهم «الصهاينة المسيحيون Christian Zionists جلهم من البروتستانت نتيجة لمعتقدات دينية غيبية تقول بضرورة عودة اليهود إلى فلسطين أو جبل صهيون فى القدس، تمهيداً لهديهم إلى المسيحية، وللخلاص النهائى لهم وللبشرية جمعاء.

ومن أهم هؤلاء: نابليون بونابرت الذى حاول الاستعانة باليهود عند حصاره لمدينة عكا فى فلسطين. ولورنس أوليفانت السياسى الإنجليزى الذى استوطن فلسطين، وساعد الصهاينة من ضمن خدمته للمصالح البريطانية. بالإضافة إلى بعض كبار الساسة والأدباء البريطانيين فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مثل اللورد بلفور صاحب الإعلان الاستعمارى الصهيونى المعروف.

وهذا الملحظ يقودنا إلى حقيقة مؤكدة وهى أن الأدب الصهيونى نما وترعرع منذ بداياته الأولى فى مجتمعات مكنته من بلورة قواعده وأعطته من سماتها ما لايمكن معه فصل هذا الأدب عن ذلك الواقع: الأدب الروسى كان قاعدة انبعاث بل خلق الأدب لدى الكثير من الأدباء اليهود الذين عاشوا هناك أمثال: سمولنسكين وأليعازر بن يهوذا وينسكر وآحاد هاعام وبياليك وغوردون وغيرهم، نهلوا من المصادر نفسها التى وردها الأدباء الروس، وكتبوا بلغتهم.

وهناك ريتشارد جيمس غوتهيل والحاخام ليون ماغنس ومناحيم كابلان الذين تأثروا بالأدب الإنجليزى. أما الثقافة الألمانية فقد طبعت نتاجات موسى هس وهرتزل وماكس نوردو بطابعها. وكان موسى بن ميمون قد كتب أغلب نتاجاته باللغة العربية حتى إنه حاكى العرب فى أوزانهم الشعرية وضروبهم البديعية والبلاغية وإن كانت أحرف نتاجاته بالعبرية.

هؤلاء - وغيرهم - يشكلون قادة الفكر الصهيونى عبر مراحل تاريخية مختلفة، وهم أيضاً رواد ما يسمى بالأدب الصهيونى برغم اختلاف اللغات المستعملة والتراث الأدبى المتعامل معه، إلا أنهم ظلوا محصورين ضمن أطر أيديولوجية ضيقة «شعب الله المختار» - «العقل الإنسانى» - «أصحاب الوعى الإلهى».

وإذا ما قسنا «الأدب الصهيونى» إلى آداب الأمم الأخرى خرجنا بنتيجة مؤداها أن هذا الأدب الصهيونى إن هو إلا تعبير لايغوص إلى العمق، إنما يسير باتجاه السطح لغاية إعلامية تخدم أهدافاً سياسية فى العصر الحاضر كما كانت فى العصور الوسطى.

واستقراء إبداعات هذا الأدب يقودنا إلى حقيقة أخرى وهى أن الأدب الصهيونى قد سبق الصهيونية السياسية فى بلورة الأفكار الشوفينية، والإعداد لاغتصاب فلسطين، فالبناء الهيكلى العام للأدب العبرى كان منذ ما قبل مرحلة إنشاء المجتمع الصهيونى جزءاً من البناء الأيديولوجى السائد، وواحدة من أدوات التبشير الأيديولوجى وآلة من آلات التوجيه القيمى والنفسى للقارئ فى إطار البرامج العملية للأيديولوجية النظرية.

ولم يكن نجاح الجهود الصهيونية فى إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ نقطة تحول فى اتجاهات الأدب العبرى الأساسية إلا من حيث اتجاه قطاع منه إلى الاهتمام بمشكلات الصهر

الاجتماعى داخل المجتمع الإسرائيلى. لقد كان هذا النجاح نقطة تأكيد حسية على صدق مقولات الأيديولوجية الصهيونية وقابليتها للتحقيق الواقعى في نظر جماهير الصهيونية، وبالتالى كان هذا النجاح تثبيتاً لاتجاهات الأدب العبرى المعاصر السابقة فى تصور الذات اليهودية وعلاقتها بالعالم الخارجى والأرض العربية.

ذلك أن الأدب العبرى الذى دخل تحت جناح الحركة الصهيونية السياسية عند نشأتها، بل وراح يمهد لها التربة قبل ظهورها منذ عام ١٨٨٠، وهو بداية ما يعرف فى المصادر الصهيونية بأنه «عصر الإحياء القومى اليهودى».. نشأ متشبعاً بفلسفتها، ومعبراً عنها سواء فى جانبها الوصفى أو فى جانب الحلول التى تقدمها لأوضاع الأقليات اليهودية فى العالم، ومن هنا غلبت مقولات هذه الفلسفة ومناظيرها فى تصور الذات والعالم الخارجى على الرؤية السائدة فى هذا الأدب وطبعه بطابعها.

والحقيقة الثالثة هى أن الأدب الصهيونى ابتدأ أشعاراً دينية وتراتيلاً وأدعية وأشواقاً رومانتيكية موضوعها التوراة وأرض الميعاد، والتطلع المستمر إلى «الأرض الخالية» التى تنتظرهم «لإعمارها» ونقل «الحضارة» إليها، ولما لم يكن يربط اليهود فى أرض الشتات روابط جغرافية واجتماعية لجأت الصهيونية الأدبية إلى اللغة العبرية لتكون الخيط الواصل بين فئات مختلفة المشارب والأهواء، وحاربت كل توجه لإلغائها، أو استبدالها بلغات أخرى حتى لغة «اليديش» التى يستعملها يهود أوروبا الشرقية «وهى مزيج من العبرية والألمانية والسلافية» ... فالعبرية - فى نظر الصهاينة - هى اللغة القومية التى تحمل سمات مميزة، وتهدف إلى غاية مرتبطة بالتاريخ التلمودى، وصاحب هذه المبادرة هو الصهيونى الأديب «آحاد هاعام» الذى طرح شعار «آخر يهودى، وأول عبرى» والذى صار شعاراً صهيونياً فى الميدان الثقافى والسياسى.

◆◆◆

والأدب الصهيونى - فى مجموعه - أدب ملتزم كما يرى عدد كبير من الباحثين: فهو شديد التعبير عن الواقع الاجتماعى والسياسى الإسرائيلى. ويجمع هؤلاء الباحثون على أن

مفهوم الالتزام فى الأدب يعد واحداً من أبرز المفاهيم المسيطرة على الحياة الفكرية والأدبية فى إسرائيل، وتعلق الباحثة الدكتورة «ريزال دومب» على شيوع هذا المفهوم فى الأدب الإسرائيلى بقولها: «إن الكتاب اليهود فى العصر الحديث اعتنقوا فكرة حركة التنوير التى آمنت بدور الكاتب كمعلم للمجتمع، لقد استشعروا عبء وعيهم ومسئوليتهم الاجتماعية.

وتدل هذه المقولة على أن الأدباء الإسرائيليين شديدو الارتباط بواقعهم وبظروف مجتمعهم. ونظراً لسيطرة نزعة الالتزام فى الأدب على فكر الكتاب الإسرائيليين، فقد كان من الطبيعى أن يسيطر الاتجاه الواقعى على الأعمال الأدبية الصادرة فى إسرائيل.

وهذا الالتزام الحاد انعكس فى الأعمال الأدبية الصهيونية شوفونية عدوانية تتفجر بالغضب الذى يقف أمام التسامح منذ البداية، مقاوماً أى تطلع جدى لحل «المشكلة اليهودية»، ممارساً التزوير وقلب الحقائق، مرتكزاً على أحداث الماضى لتبرير أحداث مستحدثة تبعد عن ذاك الزمان وذاك المكان، مثيراً عداء الشعوب بسلوكيته الشاذة على الصعيد العملى والنظرى.

ومن القصائد الناضحة بهذه الروح قصيدة الشاعرة الإسرائيلية «أنا نجرينو» وفيها تقول:

أوصتنى أمى منذ الطفولة
ليكن عملك بتصميم وتعصب
حتى لو امتدت يدى يوماً بغضب
لاتغفرى لى
ابنتى، ولا تسمحى
قالت لى أمى بأنى
ابنة لشعب غنى بالأسفار
والأغيار جهلة
حثتنى أن أكون بالمقدمة

لأنى يهودية

قالت أمى:

إننى ابنة شعب

لا يقبل الضياع

واجبى مواصلة الدرب

درب أبى

لمواجهة الأغيار الأعداء

ولو كانوا كل العالم

❖❖❖

وهذه الروح العدوانية المتعالية انعكست كذلك فى الإزدراء بالعربى الفلسطينى، والتحقير من شأنه، ووصفه بأحط الصفات فبعد تنفيذ وعد بلفور وظهور الفلسطينى المقاتل من أجل حقوقه المشروعة وصف فى أدبيات الصهاينة بأنه إرهابى وجبان ومتوحش ومثير للرعب، وأنه لا يقوم بعملياته العدوانية إلا فى الليل، أما النهار فإنه يرتدى فيه لباس المسكنة والضعف، يقول «آحاد هاعام»: إن المستوطنين الصهاينة يعتقدون أن العرب جميعاً متوحشون، يعيشون مثل الحيوانات، ولا يفهمون مايدور من حولهم.

ويقول «ج. كوهين»: إن العربى مجرد مخلوق غريب، يرتدى جلباباً ممزقاً، وغطاء قذراً للرأس، وتلتف زوجته بثوب أبيض، ويسير أطفاله حفاة... إنه ليس قذراً فحسب، بل هو أيضاً لص وكذوب وكسول وعدوانى.

ويقول «عاموس عوز» فى قصة «البدو الرحل والثعبان»: إنهم يسرقون ثمار الفاكهة غير الناضجة التى فى البساتين، ويفتحون الحنفيات، ويسرقون حظائر الدجاج، وينتفون ريش الطيور.

ويصف «س. يزهار» القرى العربية فى قصة «خربة جزعة» عندما كان موجوداً فى السهل يستعد مع زملائه للهجوم على القرية فيقول: «... العرب القذرون المتسللون لإحياء نفوسهم

القاحلة فى قراهم المهجورة... أى دخل لنا ولشبابنا وأيامنا الغابرة بقراهم المقملة والمبقة والمقفرة والخانقة، هذه القرى الخاوية سيأتى اليوم الذى تبدأ فيه الصراخ».

◆◆◆

ومقابل هذا يصور الأدب الصهيونى «شخصية الإسرائيلى» بصورة البطل المغوار الذى يحقق النصر. ففى إحدى قصائدهم:

اعتمر الخوذة

استعداداً لمسيرة الدم

جائلاً بعينيه إلى النار الحمقى

امتشاق السيف جزء من آدميته

لرعشة الفرح

وإحالة الحرب إلى سعادة

◆◆◆

وارتفع مؤشر معنويات المستوطنين اليهود بعد رحلة السادات إلى القدس، وعبروا عن ذلك بالرقص فى شوارع تل أبيب والقدس وحيفا وغيرها ... أما الأدب الذى شارك المستوطنين اغتباطهم - فقد كان أكثر تعبيراً عن حالة «الانتصار» الذى حصلوا عليه دون ضحايا، كتب الشاعر الصهيونى «ديدى منوسى»:

لنتنفس الصعداء

فإذا لم نكن نعيش حلماً

فلنقيد كل شروطنا

ومتطلباتنا

بتأكيد عدم الفصل

(بين ما نريد وما نأخذ)

وتزداد درجة التعالى والتشامخ بعد إقرار «كامب ديفيد» التى جسد مبادئها الشاعر

الصهيوني «ديدى منوسى» فى قصيدته «الغيبوبة الساحرة»:

جود جلالته
(رغبات الشعب)
كقصة جميلة
كقلعة راسخة
الوضع الآني
فى كامب ديفيد
كالقصة المذكورة
بلا ابتسام
تكشف سترها
الصور الأولية
بلا تهديد ولا حرد
(هذا الهدوء يضاعف مجدنا)
دون أن نطلبه
أعطينا إياه
واقتسمنا السلطة
لا تظاهرات
داعية
للحذف والتأجيل
ولا أراك تشكك بالموضوعات
الكل بصدق يعملون
مفاهيم تطرح بحذر
والكل يعمل حتى السحر

لترسيخ الأمن
والاستعداد للحرب
الأرباح مدار البحث
ماضياً وحاضراً
فالمواضيع
تحتاج للمراقبة
الوضع الآنى
فى مباحثات كامب ديفيد
كقصة جميلة
كقلعة راسخة
كذلك تذكر الأساطير
مجرى أحداث وأمور
ومواقف
دمر (بيت الملكة)
قبل الأوان
رغم اليأس والبكاء
بكامب ديفيد تكمن الحياة
هناك (إذا لم تحكم الرغبة)
فسيفرض السلاح
نفسه

ونكتفى بهذه النماذج من الأدب الصهيونى فهى - فى مجموعها - تبرز أهم سمات هذا الأدب وطوابعه:

- فهو أدب أيديولوجى ملتزم، وكثير منه ينطلق من مرتكزات توراتية دينية حادة.

- وهو فى تعامله مع المواضعات العالمية العامة، ومعايشته للمواضعات السياسية والاجتماعية الوطنية تهيمن عليه مجموعة من العقد المتناقضة كعقدة الضعة، وعقدة الشعور بالاضطهاد، وعقدة الاستعلاء التى تجسدت عنده أخيراً.

- وهو أدب عنصرى، اتخذ من مقولة «معاداة الآخرين للسامية» منطلقاً لمعاداتها للآخرين والدعوة إلى الانتقام منهم عسكرياً واقتصادياً واجتماعياً، وتمجيداً للصهاينة «كعنصر» راق له تميزه وتفرده عقلياً ونفسياً.

وبعد هذه المسيرة التى طالت بعض الشىء علينا أن نعرف أن هناك آداباً أيديولوجية دينية لها مكانها ومكانتها على المستوى العالمى، ولكل أدب منها كتّابه الملتزمون:

- فهناك أدب ماركسى يرفع لواءه شيوعيون يؤمنون بالماركسية.

- وهناك أدب وجودى يبدعه وجوديون مؤمنون بالوجودية.

- وهناك أدب مسيحى عالج كل الأجناس الأدبية، له كتّابه وأدباؤه من المسيحيين.

- وهناك أدب صهيونى له ملامحه وطوابعه المميزة ينتجه يهود صهاينة.

وقد لا يعلن هؤلاء صراحة اشتراط «الهوية العقدية والدينية» فى المبدع حتى يحكم على أدبه بالهوية نفسها، فتلتقى هوية الأدب وهوية الأديب أى هوية النص بهوية الناصّ، وذلك لأن هذا الشرط متحقق فى المبدع بداهة، ولا يحتاج إلى نص يلح عليه وينبه إليه، والخروج على هذا الوصف يعد استثناء لا يقاس عليه. فلماذا يرفض كتاب ونقاد «مسلمون» اشتراط «مسلمية المبدع» حتى يصدق وصف الإسلامية على إبداعه؟!!

❖❖❖

والمعروض السابق - كما رأينا - كان دراسة نقدية ميدانية عملية، عالجت أهم مفردات القضية الفلسطينية، ومكانها فى الشعر والأدب.

ويجىء «المعروض الثالث» والأخير ختامًا طبعيًا لهذا الكتاب، متمثلاً فى ثلاث قصائد من شعر القضية .. قضية القرن، بل قضية العصر كله.

❖❖❖

أهم المراجع:

١ - الأدب الصهيونى الحديث بين الإرث والواقع: جودت السعد.

٢ - الأدب الصهيونى بين حربي: حزيران ١٩٦٧، تشرين ١٩٧٣ د. إبراهيم البحراوى.

٣ - خصائص التصور الإسلامى: الشهيد سيد قطب.

٤ - الصهيونية غير اليهودية: ريجينا الشريف.

٥ - موسوعة السياسة: عبد الوهاب الكيالى وآخرون.

٦ - اليهود فى تاريخ الحضارات الأولى: غوستوف لوبون.

٧ - إشكالية الاندماج الطائفى فى شعر يهود الشرق فى إسرائيل: د. جمال الدين الرفاعى: دراسة فى مجلة عالم الفكر الكويتية. كانون ثان/ يناير عام ١٩٩٦.

٨ - الشخصية العربية فى القصة العبرية القصيرة المعاصرة. د. محمود حميدة. دراسة فى مجلة عالم الفكر الكويتية. كانون ثان / يناير عام ١٩٩٦م.

◆◆◆

المعروض الثالث:

إليكم بعض أشعارى

لماذا انحنيت؟

١ - ووصَّيْتُك الأمْسَ قبلَ المماتِ.. وصيَّة حقٌ... ولكنْ غَوَيْتْ
٢ - وفيها سَطَرْتُ «تزولُ الجبالُ.. ولا تَنحنِى أبداً» فانحنيتْ
٣ - وفيها: «ستعصِفُ هوجُ الرياح فكُنْ قمة صُلبَة» فانحنيتْ
٤ - وفيها: «سيمتد ليلُ الأسى فلا تبتس بالأسى». فانحنيت
٥ - وفيها: «يكونُ جفافٌ وجوعٌ.. فمُتْ بالطوى شامخًا» فانحنيت
٦ - وفيها «انتصرْ بالثباتِ العتِىَ وبالصبرِ فى عِزَّةٍ» فانحنيت

❖ ❖ ❖

٧ - فأيْنَ وصاةُ أبيك الذى.. إلى دفءِ مُهجتِهِ قد أوَيْت؟
٨ - وكَمْ سهرَ الليلَ يَحْمى حِماكَ.. ويبكى دماءً.. إذا ما بكيتْ..
٩ - ويحملُ عنكَ همومَ الحياةِ.. ويرعى الذى بعدهُ ما رعيتْ
١٠ - عصيْتَ وصاتى التى صُغتُها بدَمِّى، وللمخزيات مشيتْ
١١ - وكنتُ أظنك نعمَ الوريثُ!! فكيفَ تبيعُ الذى ما اشتريتْ؟!
١٢ - فبعتَ جوادى الأصيلَ الكريمَ وأمًا، وأختًا، وأرضًا، وبيتْ
١٣ - وشعرى بعْتَ، ونَخلى بِعْتَ وسيفى ورُمحى، وسِرْجَ الكُميتْ!!
١٤ - وبعَتَ سريرى الذى فوقهُ وُلِدْت، وكم نِمْتَ حتى استويتْ
١٥ - للصٌ بَغِىٌ عُتُلٍ.. زنيم.. على قدميه - خَسِئْتَ - ارتميتْ

❖ ❖ ❖

١٦ - لتِلثمَ نعليْهِ.. فى ذِلةٍ وتلعق طينهما، ما استحيتْ!!
١٧ - فَكيفَ تبيعُ التراثَ العزيز.. بِكسرةِ خُبز، ونقطة زَيْتْ؟!
١٨ - وتاجٍ من الشوكِ يُدْمِى الجبينَ ووعدِ كذوبٍ وكيتَ، وكيتْ

١٩ - وعرشٍ حقيرٍ له لَمْعَةٌ.. من البهْرجاتِ.. إليه ارتقيتْ
٢٠ - ولم تدرِ أنك حينَ اعتلَيْتَ هبطتَ بما أنت فيه اعتليْتْ
٢١ - وفى موكِبِ الذل صرت الأميرَ ذليلاً كسيحَ المسارِ مشيتْ

❖ ❖ ❖

٢٢ - فلا تملكُ الأمرَ إما تَشَا.. ولا النهْىَ تملكُ إما نويْت
٢٣ - وتصدعُ بالأمرِ.. إمَّا أُمِرْتَ ويَنْفُذُ أمْرُ العدا إنْ نَهَيْتْ
٢٤ - فلما سكرتَ بِخمرِ الخداع ومالَتْ بك الخمرُ لما انتشيتْ
٢٥ - غدوْتَ لغيركَ.. أضْحوكة فليس سوى الخُسْرِ ما قد جَنَيْتْ
٢٦ - وقلنا: «اكتفيتَ بما قد جَمَعْتَ.. من العارِ، لكنما ما اكتفيتْ
٢٧ - فعنْ قوسِ أعدائِنا قد رمَيتْ فواحسرتاهُ على مَنْ رَمَيْتْ!!
٢٨ - بسهْمِكَ خرَّ عزيزٌ.. أبىٌّ بجمرِكَ قلبًا طهورًا.. كَويْتْ
٢٩ - أتحمى حياةَ العدوِّ العقورِ وأيضًا تُراثى لهُمْ قد حميتْ!!

❖ ❖ ❖

٣٠ - أأبكى عليكَ؟؟ أأبكى إليك؟؟ أأبكى علينا لما قد جَنَيْتْ؟!
٣١ - ففى غدكَ المستباح الجريح ستصرخ «يا ليتنى ما انحنيتْ»
٣٢ - ويرتدُّ سهمُكَ فى مقلتيكَ.. ولن يُنقذَ البيتَ آلافُ «ليتْ»
٣٣ - فليسَ لما قدْ كسرتَ انجبارٌ.. بما قد جرزْتَ، وما قد غَوَيْتْ
٣٤ - وتدركُ بعدَ فوات الأوان.. بأنك لما انحنيت.. انتهيتْ
٣٥ - وما دمتَ قدْ بِعْتَ حتى الحُطامَ ولم تُبق أمًّا، وأرضًا وبيتْ
٣٦ - فإنى أخشى غدًا أن تبيع عِظامى، وقبرًا به قد ثويتْ

الإسراء .. والأطفال والحجارة

١ - وهاقدْ هلَّتِ الذكرى   عبيرًا فاحَ ريَّاهُ...
٢ - فأصبحَ جنْبُها رَوْضًا   وشادِي النورِ ضَوَّاهُ
٣ - محمدُ يارُبَى يَسْرِي   تَمَلَّىْ مِنْ مُحَيَّاهُ
٤ - فسبحانَ الذى أَسْرى   به فى ظِلُّ نُعْمَاه
٥ - فما زاغَتْ له رُؤْيا   وما كَذَبَتْه عَيْنَاه
٦ - بمعراج حداه النُّور   فيَّاضا ..ومَسْراه
٧ - فيغشى السُّدْرَة الشمَّاءَ   ما يغْشى لمرآهُ
٨ - وآياتٍ له كُبْرَى   تُحققُ ما ..تمنَّاه
٩ - وصوتُ الله يحدُوهُ   ويأمرُهُ.. وينْهاه
١٠ - فكانتْ شِرْعَةُ المحرابِ   خَمسًا مِنْ عَطايَاهُ
١١ - لتنهَى العبدَ عن خَطَلٍ   فيبعدَ عنْ خطاياه

◆ ◆ ◆

١٢ - لقد هَلَّتْ رُؤَى الذكْرى   ومِلْءُ قلوبِنَا الآهُ
١٣ - وقد نزَّتْ جراحُ القلْب   مما قدْ لَقينَاهُ
١٤ - فَطِرْتُ على جناحِ الشوقِ   للأقْصى لأحْياهُ
١٥ - وها قد جئت يا محراب   اسْتَنْفِى بذكْرَاه
١٦ - ودمْعُ الحُزْنِ فى الصلوات   رَوَّانِى ورَوَّاه
١٧ - أنا لن أبْرَحَ المِحْرابَ   حتى يأذنَ اللهُ
١٨ - هنا قد خَرٌ للأذْقانِ   رُسْلُ الله: ربَّاهُ!!
١٩ - وأَمَّهُمُ رسولُ اللَّهِ   يا أَعْظِمْ بِتقْواه!!
٢٠ - ففاض الأفقُ بالأنْوارِ   من نورِ تجَلَّاه

٢١ - وسبَّحَ فى جبين القدْسِ   من أطيابِ لُقْيَاهُ:
٢٢ - جبالٌ هَشَّ شامِخُها   وزيتونٌ وأمْوَاهُ
٢٣ - أنا فى المسْجِدِ الأقْصى   وقلبى الحُبُّ أضْناه
٢٤ - ذرُونى أرْتوى منْهُ   وأَشْبَعُ مِنْ نَجَاواهُ
٢٥ - ولكنَّ الأيادِى السودَ   شدَّتْنى .. فوا آهُ
٢٦ - وقالوا: لَمْ يعُدْ لَكُمُ   ولا حَتى بقاياه
٢٧ - هنا قد كانَ هيكُلنا   بنَيْناهُ .. وشِدْنَاهُ
٢٨ - سنبْنيهِ ونُعليهِ   ليرْضَى ربُّنا (ياهُو)(١)

❖ ❖ ❖

٢٩ - صرختُ بقلبِىَ الباكِى   وعمْقُ الجرْحِ أدْمَاهُ
٣٠ - وصحتُ بقادتى الأبطالِ   «ياعرفاتُ قدْسَاه»!!
٣١ - ولكنْ جاءنِى صوتٌ   ينيرُ الحقُّ أَصْدَاهُ:
٣٢ - فلسطينٌ قد ابتُلِيَتْ   بقاداتٍ ألا شاهُوا!!
٣٣ - رجالاتٍ إذا نَطَقُوا   وإنْ فعلُوا فأشْبَاهُ
٣٤ - لهمْ صيتٌ وأصواتٌ   وأرْصِدةٌ لَها جاهُ
٣٥ - فكَلٌ قدْ هوى الدنيا   وحبُّ البنْكِ أغْراه
٣٦ - وإنَّ كبيرَهم فيها   «هِرقْلٌ» أَوْ «شَهِنْشَاه»
٣٧ - يُهَددُ شعبَهَ المسكينَ   إذْ هبَّتْ سَرَاياهُ
٣٨ - تقودُ حماسُ فِتْيتَها   وغايتُهمْ هى الله
٣٩ - يقولُ بأنهم «زُولو»(٢)   تُهددُ صَفْوَ دُنْياه
٤٠ - وأنَّ رصاصَه عُقْبَى   لِمنْ ضَلُّوا وَمَنْ تاهُوا
٤١ - وسارُوا فى جهادِهُمُ   ونَادَوْا: يالَقُدْسَاهُ
٤٢ - وقالُوا لا «لمدْريدِ»   ومَنْ «بسلامها» بَاهُوا
٤٣ - و«أوسلُو» الذلَّ قد رفضوا   فيا للعارِ ياشْاهُ

٤٤ - وسِرْتُ بقلبَى الدامِى   كَمَنْ فى القيدِ رجْلاَه
٤٥ - فصوتُ «القائدِ الأعلى»   رماهُ، بل .. وأخْزَاه
٤٦ - وقلتُ: «أهكذا يُطْوَى   كفاحٌ قد بدأْنَاهُ
٤٧ - ومجدٌ من حُشاشَتِنَا   وماءِ القلْبِ صُغْنَاهُ
٤٨ - وقدوتُنَا رسولُ اللهِ   فى نهْجِ رضِيناه؟
٤٩ - فكيفَ نعودُ موكوسِينَ   والماضى أضعْناه
٥٠ - يسودُ حياتَنا قهرٌ   وإذلالٌ وإكراهُ؟
٥١ - ولكنى بدرْبِ الحزْنِ   والظلماتُ تَغْشَاه
٥٢ - هناك .. رأيتُهُ .. طِفْلا   تُشِعُّ النورَ عيْناه
٥٣ - يثورُ بكفه حَجَرٌ   سعيرُ الثأْرِ لَظَّاهُ
٥٤ - يهابُ يهودُ لسْعَتَهُ   وتُرْعِبُهُمْ شظاياه
٥٥ - يُكبِّرُ حينما يَرْمى   وجندُ يهود مَرْمَاهُ
٥٦ - فيا عجبا لهذا الطفْلِ   كالصاروخِ يُمْنَاهُ
٥٧ - تسوقُ الموتَ فى حجرِ   يمزِّقُ مَنْ تحدَّاهُ
٥٨ - ويرمى حَيْثُما يَبْغي   كأنَّ الحربَ مَهْواه
٥٩ - وما طفلٌ هُوَ الرامى   بل الرامى هُوَ اللهُ
٦٠ - ويا عَجَبًا لهذا الطفْلِ   فى صُبْحِ ومَمْساهُ
٦١ - فما جرْحٌ بعائقه   ولا التعذيبُ بَكَّاه
٦٢ - ولا سِجْنٌ يُرَوِّعُهُ   ولا التشْريدُ يَخْشَاهُ!
٦٣ - فقمْ لقيادةٍ ضَلَّت   ومَنْ أعمَتْهُ دُنْياهُ
٦٤ - وعَلِّمْهُمْ أيا طفلا   هُدَى الإسلامِ رَبَّاه
٦٥ - وعلمهم أيا بَطَلا   هَوَى المحرابِ نَمَّاه
٦٦ - وعلمهم أيا أَمَلاً   يصوغُ المجْدَ كفَّاه
٦٧ - بأن الحقَّ منتصرٌ   وناصرُهُ هو الله

٦٨ - وقل للقائدِ المغوارِ   مَنْ أعنيه .. «إياه» ..
٦٩ - بأنَّ القدسَ لَنْ يُعنو   بصخرتِه وأقصاهُ
٧٠ - وأن السلْمَ كالتسليمِ   إنَّا قدْ رفضناه
٧١ - فَسِلْمٌ قدْ عَدَاهُ العدْلُ   نأباهُ ونأباه
٧٢ - وهذى الأرضُ للإسلامِ   قلعتُهُ ومأواه
٧٣ - وسلْ عُمَرًا وسَلْ عَمْرًا   ومَن ذا التُّربُ واراه
٧٤ - سِجِلٌّ شهادةٍ فى الله   كَفُّ المجْدِ أمْضَاهُ

◆ ◆ ◆

٧٥ - أيا أطفالُ .. يا أملاً   وأنتمْ قوةٌ .. جاه
٧٦ - محمدُ لمْ يَمُتْ . فيكمْ   عزيمتُهُ وذكْرَاهُ
٧٧ - خُذونى أَنْضَوى مَعَكُمْ   بدربٍ قدْ عَشقْنَاهُ
٧٨ - فأرمى مثلما ترْمُون   صخْرًا قد شحذْنَاهُ
٧٩ - ومِنْ لَهَبٍ سقْيناه   وبالإصْرارِ سُقْنَاه
٨٠ - فإمَّا يَهْوِ فى الميدانِ   جسْمى البَغْىُ أرْدَاه
٨١ - ومَزَّقَهُ لأشْلاءِ   فَصَلّوا فوقَ أشْلاهُ
٨٢ - وخَلُّوا أَعْظَمى حَجَرًا   بوجْهِهِ قدْ لعَنَّاه
٨٣ - وسيروا فى طريقكُمُ   فعينُ اللهِ ترْعاهُ
٨٤ - فهذا النصْرُ مؤتلق   وأنتَمْ بعضُ بُشْراه
٨٥ - وواعِدُنا هَوَ اللّهُ   ومَوْعِدُنا هوَ اللَّهُ..

(١) ياهُو: أصلها (يَهوه)، وهو أحد أسماء الإله عند اليهود كما ورد فى توراتهم.

(٢) من عدة سنوات كان عرفات يقول عن مجاهدى حماس إنهم يشبهون قبائل «الزولو» الذين كانوا يعارضون مانديلا فى جنوب أفريقيا، ولن أتعامل معهم إلا بالرصاص.

يا فتى الانتفاضة

١ - ارفعْ حجارتَك الأبيَّة وارجُمنْ بها اليهودْ
٢ - واهتِكْ حجابَ «الأوسلَويّين» المناكيدِ العبيدْ
٣ - فهُمُو «عباقرةُ» التنازلِ والتراجعِ والسجودْ
٤ - البائعونَ الأرضَ والأعراضَ من أجْلِ «الرصيد»
٥ - فى صفقةٍ منكوسةٍ خانوا بها كلَّ العهودْ
٦ - ثم اكتَسَوْا ثوبَ البطولةِ فى غرورِهُمُو الفريدْ
٧ - يا ويلَهمْ!! «ينسُون أن حقيقةَ الحقِّ السديدْ:
٨ - «أن التيّوسَ هى التيوسُ، ولو تُسمَّى بالأسودْ»
٩- ارفع حجارتَك العَتيَّةَ، وارجُمنَّ بها اليهود
١٠ - مشحونةً بدم الجراحِ، وآهةِ الشعبِ الشريد
١١ - واثأرْ «لدُرّتِنا» الحبيب وكلُّ من يَمْضى شهيدْ

◆ ◆ ◆

١٢ - اصمدْ، وقاتلْ، لا تَهُنْ فَلأنتَ فارسُها الوحيد
١٣ - واعلمْ بأنَّ الحل فى الرشّاشِ والحجرِ العنيد
١٤ - لا حلَّ فى «أوسلُو» وشرْمِ الشيخِ أو فى «كمْبِ فيد»
١٥ - أوْ فى «أمِركَا» فهْىَ عن صفِّ الصهاينِ لا تَحيدْ
١٦ - أو فى «محافلِ أمْنهم» فوشُنطنٌ فيها تسود
١٧ - والظلمُ عدْلٌ إن تَشَأْ والعَدْلُ ظلمٌ إذْ تريد
١٨ - والحقُّ فيها للقوىِّ اللصِّ نكّاثِ العهود
١٩ - أما الضعيفُ فضائعٌ وبلا حقوقٍ كالعبيدْ

٢٠ - لَمْلِمْ جـراحَك يا فـتى وتَحلَّ بـالعـزم الحـديد
٢١ - ولقـد تُعـاودكَ الجـراحُ بوجـهـها العـاتى النّكيدْ
٢٢ - وتجـوعُ إذْ حـرمـوك حـتى كِـسْـرةَ الخـبـزِ القـديدْ
٢٣ - وتبـيتُ مـقـروحَ اللَّهـاة تصـارعُ الظمـأ الشـديد
٢٤ - ويَحلُّ سـاحـتَك السَّـقـامُ المرُّ فى نَهَم حَـقُـود
٢٥ - لكنمـا واصلْ جـهـادك بالعنـادِ... وبالصـمـود
٢٦ - لا تسـمـعنَّ لِمَنْ ينادى مِنْ قـريب أو بعـيـد:
٢٧ - «ألقِ السـلاحَ فـقـد هَوَى فى أرضنا مـائتـا شـهـيـد
٢٨ - وعـدوُّنا فى عـدَّةٍ... مِنْ هـولهـا شـاب الوليـد
٢٩ - فَـدَعِ السـلاحَ فـبـالسـلامِ نعـيشُ فى رَغَـدٍ رغـيـد
٣٠ - ولنا «المعـونـةُ» والسـلامـةُ والغِنَى الجمُّ المديد»

❖ ❖ ❖

٣١ - لا تسـمـعنَّ، وقل لهمْ فى نبـرةِ الحقِّ الأكـيـدْ:
٣٢ - «إنَّ الجـهـادَ هو الطريقُ إلى التـحـررِ، لا مَـحِـيـدْ»
٣٣ - ارفعْ سـلاحك يا فـتى، دمِّـرْ به صَلَفَ اليـهـود
٣٤ - قـد تمطرُ الدنيـا صـخـورًا، أو لهـيـبًـا، أو حـديد
٣٥ - أو تـزأرُ الآفـاقُ حـولك بالعـواصفِ والرعـود
٣٦ - أو قـد يمـوج الصـخـر تحـتك بالأفـاعى والصـديد
٣٧ - ومـدافـع الأعـداء تعـوى باللظى العـاتى المَريد
٣٨ - حـتى تكاد الأرضُ منهـا أن تشـقَّقَ أو تَمـيـد
٣٩ - لكنمـا واصلْ نضـالَكَ بالعنادِ.. وبالصـمـودْ
٤٠ - فـالأرضُ أرضُك لن تهـونَ، ولن تُذلّ ولن تبـيـد
٤١ - اليـومُ يومُك يا فـتى صـبـرًا كـمـا صـبَـرَ الجـدود

٤٢ - لا تفـزعنّ لمكرهمْ ولنارهم ذاتِ الوقود

٤٣ - صبرًا كما صبر الرعيلُ الأوّل الفذّ المجيد:

٤٤ - من «آل ياسرٍ» لم يزحزحهم عذابٌ أو وعيد

٤٥ - «وبلالٌ» لم يهزمْه سوْط أو هجيرٌ أو حديدْ

٤٦ - اليومُ يومُك يا فتى عزْمًا كما عزم الجدود:

٤٧ - عزْمًا كعزمة حمزةٍ وأسامةٍ وابنِ الوليد

٤٨ - فالصبرُ والعزمُ القويُّ وسيلةُ النصر الأكيد

٤٩ - وانشدْ نشيدَك يا فتى فالكونُ يُصغى للنشيدْ

٥٠ - واهتف هتافك داويًا فلأنتَ منشدها الوحيد

٥١ - زلزل به أركانَ إسرائيلَ والظلمَ المريد:

٥٢ - «إنى هنا لن أستكينَ، ولن أسَلّم أو أحيدْ

٥٣ - الله غايتنا، ومنهجنا الجهادُ بلا حدود..

٥٤ - فهْو الطريقُ إلى التحرر والكرامة والخلودْ

٥٥ - وأقولُ للزعماءِ أرباب التنازل.. والسجود

٥٦ - الخانعينَ الأدعياءِ، وما بِهمْ رجلٌ رشيد:

٥٧ - لا، والذى أهْوَى بفرعونَ العتيِّ وبالجنود

٥٨ - وأذلَّ خيبرَ والنضيرَ وقينقاعَ من اليهود

٥٩ - لا والذى قدْ أنزل الأنفالَ والأعلى وهود

٦٠ - فليحشدُوا كلَّ المدافع والموانع والحشود

٦١ - فسبيلنا للحقِّ إحدى الحسنيين، ولا مزيد:

٦٢ - إما فلسطين تحرَّرُ، أو أموتُ بها شهيد»

◆ ◆ ◆

٦٣ - يأيها الأبطالُ، يا شرفاءُ، أوْفُوا بالعهود

٦٤ - لا تقنطوا من رحـــمـــة الجـــبـــار ذى العـــرش المجـــيـــد
٦٥ - فـــالفـــجـــرآت - لا مـــحـــالة - لم يعـــدُ منكم بعـــيـــد
٦٦ - وغـــــداً ســـــتنهـــــارُ المواقـــعُ والموانـــعُ والســـــدود
٦٧ - وتنوبُ - من إيـمـــانكم وجـــهـــادكم - كل القـــيـــود
٦٨ - وتعـــود راية أحـــمـــدٍ للقـــدسِ فى هَرَجٍ ســـعـــيـــد

الكاتب فى سطور

من مواليد مدينة «المنزلة» بشمال دلتا النيل بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٣٤م.

حاصل على المؤهلات الآتية:

- ليسانس دار العلوم التربوى من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.
- ليسانس الحقوق - من كلية الحقوق بجامعة القاهرة.
- دبلوم عال فى الشريعة الإسلامية - من كلية الحقوق جامعة القاهرة.
- ماجستير فى الأدب العربى الحديث من جامعة الكويت.
- دكتوراه فى الأدب العربى الحديث - من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

عمل بالتدريس فى الكليات والجامعات الآتية:

- كلية الألسن - جامعة عين شمس.
- جامعة (يل) Yale بو لاية (كنكتكت) بالولايات المتحدة.
- الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان).
- جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (قسم الدراسات الإسلامية والعربية) - الظهران المملكة العربية السعودية.

حضر كثيراً من المؤتمرات العالمية، ومنها:

- مؤتمر الشباب المسلم العربى بمدينة (سبرنج فيلد Spring Field) بالولايات المتحدة
- مؤتمر شباب الجامعات الإسلامية. بإسلام آباد.
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية - باسطنبول - تركيا.
- مؤتمر «ظاهرة ضعف اللغة العربية فى التعليم الجامعى» جامعة الإمام محمد بن سعود - الرياض.
- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بالدار البيضاء بالمغرب.

- مؤتمر رابطة الأدب الإسلامى العالمية بأغادير بالمغرب.

عضو فى:

- اتحاد الكتاب المصريين.
- رابطة الأدب الإسلامى العالمية.

الكتب المطبوعة:

١ - منهج العقاد فى التراجم الأدبية.

٢ - أدب الخلفاء الراشدين.

٣ - أدب الرسائل فى صدر الإسلام.

٤ - التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى.

٥ - صوت الإسلام فى شعر حافظ إبراهيم.

٦ - الشاعر الفلسطينى الشهيد عبد الرحيم محمود، أو: ملحمة الكلمة و الدم.

٧ - التراث الإنسانى فى شعر أمل دنقل.

٨ - فى صحبة المصطفى.

٩ - المدخل إلى القيم الإسلامية.

١٠ - المعارضة فى الإسلام بين النظرية والتطبيق.

١١ - الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف.

١٢ - آثار التبشير والاستشراق فى الشباب المسلم.

١٣ - الزحف المدنس (ديوان شعر).

١٤ - لجهاد الأفغان أغنى (ديوان شعر).

١٥ - حديث عصرى إلى أبى أيوب الأنصارى (ديوان شعر).

١٦ - لله والحق وفلسطين (ديوان شعر).

١٧ - أثر وسائل الإعلام المقروءة و المسموعة والمرئية فى اللغة العربية.

١٨ - الإمام الشهيد حسن البنا بين السهام السوداء وعطاء الرسائل.

١٩ - رواية وليمة لأعشاب البحر: فى ميزان الإسلام والعقل والأدب.

البحوث المنشورة فى مجلات:

عشرات من البحوث والمقالات نشرت فى المجلات الآتية:

١ - مجلة الدارة (سعودية فصلية محكمة).

٢ - مجلة الدراسات العربية (مصرية فصلية محكمة).

٣ - مجلة الدراسات الإسلامية (فصلية باكستانية محكمة).

٤ - مجلة الشعر (مصرية شهرية).

٥ - مجلة الفيصل (سعودية شهرية).

٦ - مجلة الحرس الوطنى (سعودية شهرية).

٧ - المجلة العربية (سعودية شهرية).

٨ - مجلة المنهل (سعودية شهرية).

٩ - مجلة الوعى الإسلامى (كويتية شهرية).

١٠ - مجلة المجتمع (كويتية أسبوعية).

١١ - مجلة المنتدى (تصدر فى دبى - شهرية).

١٢ - المسلمون (سعودية أسبوعية).

والحمد لله رب العالمين..

الفهرس